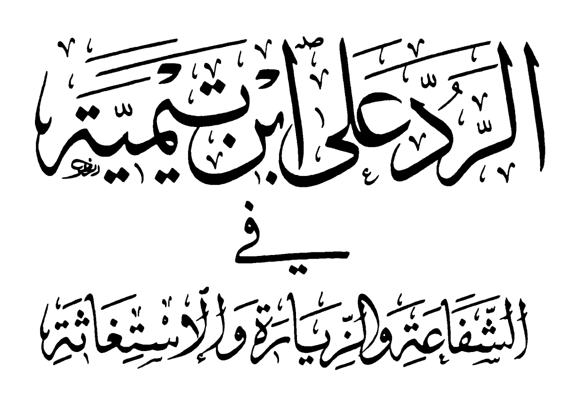

الرد على ابن تيمية
في
الشفاعة والزيارة والاستغاثة
السيد علي الحسيني الميلاني



السيد علي الحسيني الميلاني

سرشناسه: حسینی میلانی، سید علی، ۱۳۲۶ -
عنوان و نام پدیدآور: الرد علی ابن تیمیة فی الشفاعة والزیارة والاستغاثة / السید علی الحسینی المیلانی.
مشخصات نشر: قم: الحقایق، ۱۴۳۵ ق. = ۱۳۹۳.
مشخصات ظاهری: ۱۰۳ ص.
شابک: 978-600-5348-83-5: ۵۰۰۰۰ ریال
وضعیت فهرست نویسی: فیپا.
یادداشت: عربی.
موضوع: ابن تیمیه، احمد بن عبدالحلیم، ۶۶۱ - ۷۲۸ ق. -- نقد و تفسیر
موضوع: زیارت -- دفاعیه‌ها و ردیه‌ها
موضوع: توسل -- دفاعیه‌ها و ردیه‌ها
موضوع: شفاعت (اسلام) -- دفاعیه‌ها و ردیه‌ها
موضوع: وهابیه -- دفاعیه‌ها و ردیه‌ها
موضوع: شیعه -- دفاعیه‌ها و ردیه‌ها
شناسه افزوده: الحقائق
رده بندی کنگره: ۱۳۹۳ ۵ح ۱۷ الف / ۶۵ / ۲۰۱ BP
رده بندی دیویی: ۲۹۷ / ۴۱۶
شماره کتابشناسی ملی: ۳۴۹۱۵۹۷



اسم الكتاب: الردّ على ابن تيمية فى الشفاعة والزيارة والإستغاثة
المؤلف: السيد علي الحسيني الميلاني
نشر: الحقايق
الطبعة: الأُولى، ١٤٣٥
المطبعة: ستاره ـ قم
الكميّة: ١٠٠٠
السعر: ٥٠٠٠٠ ريال
ردمك: ٥ ـ ٨٣ ـ ٥٣٤٨ ـ ٦٠٠ ـ ٩٧٨ 978 - 600 - 5348 - 83 - 5

عنوان مركز النشر: قم المقدسه، هاتف: ٠٢٥-٣٧٨٣٧٣٢٠ و ٠٢٥-٣٧٨٤٢٦٨٢

عنوان مركز التوزيع في طهران: شارع مجاهدين، تقاطع «آبسردار»، بناية الأطباء «ساختمان پزشكان»، شُقّة رقم ٩، منشورات مركز منير الثقافي، هاتف: ٠٢١-٧٧٥٢١٨٣٦ (٤ خطوط)

عنوان مركز التوزيع في طهران: شارع «پاسداران»، شارع «شهيد گلنبى»، زاوية شارع ناطق نورى، بناية زمرد «ساختمان زمرد»، الطابق الثاني، رقم ٤٣، منشورات آفاق، هاتف: ٠٢١-٢٢٨٤٧٠٣٥

عنوان مركز التوزيع في مشهد: شارع الشهداء، خلف حديقة نادري «باغ نادرى»، زقاق الشهيد خوراكيان، بناية «گنجينه كتاب»، دار نشر نور الكتاب، هاتف: ٠٥١١-٢٢٤٢٢٦٢ ٠٩١٥١١٩٩٤٨٦

عنوان مركز التوزيع في اصفهان: شارع «چهارباغ پائين»، مقابل ملعب «تختي» الرياضي، مركز الحوزة العلمية التخصصي للحوزة العلمية في اصفهان، هاتف: ٠٣١١-٢٢٢٣٤٢٣

عنوان مركز التوزيع في تبريز: شارع الامام الخميني، قُرب دوّار «ساعت»، سوق «بزرگ تربيت»، الطابق الأسفل، رقم ٢٦، منشورات «نداى شمس»، هاتف: ٠٤١١-٥٥٤٠٢٥٢

عنوان مركز التوزيع في زنجان: محطة «هفت تير»، محطة الباصات، معرض الكتاب «گلستان»، هاتف: ٠٢٤١-٣٢٢٠٩٩٠

عنوان مركز التوزيع في كرمانشاه: شارع «باغ ابريشم» بجانب مدخل جامعة الرازي الأصلي، مكتبة الحافظ، هاتف: ٠٨٣١-٤٢٨٤٠٨٢

عنوان مركز التوزيع في كاشان: قاطع ٢ منطقة ناجي آباد نهاية شارع پاسگاه شارع مهستان، مكتبة فيروز (السيد هاشمي)، هاتف: ٠٣٦١-٥٤٣٢٨٨٣ ٠٩١٣٦٨١١٩٣٢

الموقع: www.al-haqaeq.org ـ **البريد الالكتروني:** Info@al-haqaeq.org ـ **الرسائل النصية:** ٩٨١٠٠٠١٤١٤+


بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة المركز

بسم الله الرّحمن الرّحيم

يسّر (مركز الحقائق الإسلاميّة) أنْ يقدّم هذا الكتاب إلى أهل البحث والتحقيق في الشفاعة والزيارة والاستغاثة وغيرها من المسائل التي خالف فيها ابن تيميّة والوهابيّون جميع الفرق من المسلمين، من إفادات سيّدنا الفقيه المحقق آية الله الحاج السيّد علي الحسيني الميلاني دام ظلّه، ونسأل الله سبحانه أنْ ينفعهم به وسائر الموالين للنبيّ الأكرم وآله الطيّبين الطّاهرين، عليهم الصّلاة والسّلام.

مركز الحقائق الإسلامية

كلمة المؤلف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّد وآله الطّاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

وبعد

فإن الأخبار عن النّبي وآله الأطهار عليهم الصّلاة والسّلام في زيارتهم والاستشفاع والتوسّل بهم إلى الله كثيرة لا تحصى، وحتى أنهم قد علّموا شيعتهم أنْ يزوروا قبورهم ويستشفعوا ويتوسّلوا بهم ويذكروا ذلك في أدعيتهم...

فعن الإمام علي بن محمد الهادي عليه السّلام أنه قال له أحد أصحابه:

علّمني ـ يا ابن رسول الله ـ قولاً أقوله بليغاً كاملاً إذا زرت واحداً منكم...

فعلّمه الإمام الزيارة المعروفة بالزيارة الجامعة... وقد جاء فيها:

«زائر لكم، لائذ عائذ بقبوركم، مستشفع إلى الله عزّوجلّ بكم ومتقرّب بكم إليه، ومقدّمكم أمام طلبتي وحوائجي وإرادتي في كلّ أحوالي وأُموري».

وهذه الفقرة من الزيارة مشتملة على امورٍ، وهي: الزيارة والشفاعة والاستغاثة والتوسّل، وقد بنّيت كلّ ذلك في شرح الزيارة الجامعة[1]، والحمد لله.

ولمّا كتبت المدخل[2] لشرح منهاج الكرامة في معرفة الإمامة والردّ على

---

١. طبع باسم: مع الأئمة الهداة.

٢. طبع باسم: دراسات في منهاج السنّة.

منهاج السّنة، فذكرت آراء ابن تيميّة في الامور المذكورة، وجاء نقدي لكلامه بالنسبة إليها مختصراً ـ لاهتمامي في الأغلب بمباحث الإمامة ـ طلب مني بعض الأفاضل من أصحابنا شرح ما أجملته في جواب ابن تيميّة، فكان هذا الكتاب

وقد استفدت فيه كثيراً من كتاب (شفاء السقام) و(الغدير) و(كشف الارتياب) و(الوفا في أخبار دار المصطفى) وغيرها من كتب العلماء الأعلام من الفريقين.

وأسأل الله عزّوجلّ أن ينفع به المؤمنين ويهدي بسببه من كان أهلاً لها، وهو الموفّق.

علي الحسيني الميلاني

١٤٣٥

كلام ابن تيميّة

في منهاجه

لقد قامت الأدلّة المتينة والبراهين الرصينة على شرعيّة زيارة القبور والإستشفاع بالأنبياء والأولياء، وخاصّة النبيّ الأكرم وأهل بيته صلّى الله عليه وعليهم وسلّم والتوسّل بهم إلى الله عزّوجلّ...

وقد كان ذلك عمل صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله والتابعين والعلماء وسائر المسلمين، ولا يزال إلى الوقت الحاضر...

حتّى جاء ابن تيميّة الحرّاني ـ في القرن الثّامن ـ فأنكر كلّ ذلك أشدّ الإنكار، وجعل يكذّب الأدلّة ويتهجّم على المسلمين ويضلّلهم، خاصّةً الشيعة الإماميّة أتباع أهل البيت الطّاهرين، إذ أكثر من شتمهم والإفتراء عليهم، ...

وقد انبرى للردّ عليه العلماء الكبار من الفرق الإسلاميّة، ولكنّ بعض الناس تبعوه وما زالوا يتعصبون له، ويكفّرون المسلمين...

ونحن نورد هنا نصوص عباراته، وما ذكرناه بالإجمال في ردّه، ثم نفصّل الكلام حول (الزيارة) و(الشفاعة) و(الإستغاثة) وبعض المسائل الأُخرى:

الشفاعة

ذهب ابن تيميّة في كتابه إلى أن شفاعة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله للأُمّة منحصرة بيوم القيامة، إلّا أن ظاهر كلامه أنها إنما تكون بعد دخول النار، فيخرج بشفاعته منها من في قلبه مثقال ذرّةٍ من الإيمان.

وهذه نصوص كلماته في المسألة:

أهل السنّة والحديث وأئمّة الإسلام المتّبعون للصّحابة لا يقولون بتخليد أحدٍ من أهل القبلة في النار ـ كما تقوله الخوارج والمعتزلة ـ لما ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الأحاديث الصحيحة أنه يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وإخراجه من النار من يخرج بشفاعته نبينا صلّى الله عليه وسلّم فيمن يشفع من أهل الكبائر من أُمّته.[١]

وقد ثبت بالنصوص المستفيضة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إخراج قومٍ من النار بعد ما امتحشوا، وثبت أيضاً شفاعة النبي صلّى الله عليه وسلّم لأهل الكبائر من أُمّته، والآثار بذلك متواترة عند أهل العلم بالحديث.[٢]

وقد ثبت عنهم بالنقول الصحيحة القول بخروج من في قلبه مثقال ذرّةٍ من إيمان من النار بشفاعة النبي صلّى الله عليه وسّلم.[٣]

أقول:

إنّ الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنّة وإجماع المسلمين، أمّا الشيعة فمعلوم، وأمّا غيرهم فقد، قال شارح العقيدة الطحاوية: «أمّا أهل السنّة والجماعة، فيقرّون بشفاعة نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم في أهل الكبائر وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحدّ له حدّاً، كما في الحديث الصحيح».[٤]

وهي للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته والعلماء والشهداء وللمؤمنين أيضاً يشفع بعضهم لبعض.

---

١. منهاج السنة: ٥ / ٢٩٤.

٢. المصدر: ٦ / ٢٠٤.

٣. المصدر: ٦ / ٣٣٧.

٤. شرح العقيدة الطحاوية ـ ثبوت شفاعة الرسول لأهل الكبائر من أمته: ١ / ٣٥٩.

وأدلّة الشفاعة غير مقيّدة بالنجاة من النار بعد دخولها، بل هي عامّة، كما هو ظاهر قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي».[١]

البناء على القبور وزيارتها والبكاء على الأموات وإنشاء القصائد في الرّثاء

وقد أقام ابن تيميّة القيامة على من يبني القبور ويزورها مطلقاً، سواء كان من الشيعة أو السنّة، وما أكثر سبّه واتّهامه وأشدّ طعنه وافترائه لمن يفعل ذلك.

فلقد عدّ من حماقات الشيعة:

«إظهارهم لما يجعلونه مشهداً»

قال: «فكم كذبوا الناس وادّعوا في هذا المكان ميّتاً من أهل البيت، وربما جعلوه مقتولاً، فيبنون ذلك مشهداً، وقد يكون ذلك قبر كافر أو قبر بعض الناس، ويظهر ذلك بعلامات كثيرة».[٢]

ثم ذكر تحت عنوان مشابهات الشيعة للنصارىٰ اموراً، منها:

«وكذلك الرافضة، غلوا في الرسل، بل في الأئمّة، حتى اتّخذوهم أرباباً من دون الله، فتركوا عبادة الله وحده لا شريك له التي أمرهم بها الرسل، وكذّبوا الرسول فيما أخبر به، من توبة الأنبياء واستغفارهم، فتجدهم يعطّلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فلا يصلّون فيها جمعةً ولا جماعة، وليس لها عندهم كبير حرمة، وإن صلّوا فيها صلّوا فيها وحداناً.

ويعظّمون المشاهد المبنيّة علىٰ القبور، فيعكفون عليها مشابهةً للمشركين، ويحجّون إليها كما يحجّ الحاجُّ إلى البيت العتيق، ومنهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة، بل يسبّون من لا يستغني بالحج إليها عن الحج الذي فرضه الله

---

١. مسند أحمد: ٤ / ٧٨.

٢. منهاج السنّة: ١ / ٥٠.

علىٰ عباده، ومن لا يستغني بها عن الجمعة والجماعة. وهذا من جنس دين النصارى والمشركين الذين يفضّلون عبادة الأوثان على عبادة الرحمن... وقد صنّف شيخهم ابن النعمان المعروف عندهم بالمفيد ـ وهو شيخ الموسوي والطوسي ـ كتاباً سمّاه مناسك المشاهد، جعل قبور المخلوقين تحجّ كما تحجّ الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قياماً للناس...

وقد علم بالإضطرار من دين الإسلام أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يأمر بما ذكروه من أمر المشاهد، ولا شرّع لأُمّته مناسك عند قبور الأنبياء والصالحين، بل هذا من دين المشركين... والله أمر في كتابه بعمارة المساجد ولم يذكر المشاهد، فالرافضة بدّلوا دين الله، فعمروا المشاهد وعطّلوا المساجد مضاهاةً للمشركين، ومخالفةً للمؤمنين...

وأيضاً، فقد علم بالنقل المتواتر بل علم بالإضطرار من دين الإسلام أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شرّع لأُمته عمارة المساجد بالصلوات والإجتماع للصّلوات الخمس، ولصلاة الجمعة والعيدين وغير ذلك، وأنه لم يشرّع لأُمّته أن يبنوا على قبر نبي ولا رجلٍ صالح، لا من أهل البيت ولا غيرهم، لا مسجداً ولا مشهداً...».(١)

وهنا تعرّض لأهل السنّة، الذين يبنون المشاهد ويزورونها، قال:

«فإن قيل: ما وصفت به الرافضة من الغلوّ والشرك والبدع، موجود كثير منه في كثير من المنتسبين إلى السنّة، فإن في كثير منهم غلواً في مشايخهم وإشراكاً بهم وابتداعاً لعباداتٍ غير مشروعة، وكثير منهم يقصد قبر من يحسن الظنّ به، إمّا ليسأله حاجاته، وإمّا ليسأل الله به حاجةً، وإمّا لظنّه أن الدعاء عند قبره أجوب منه في

---

١. منهاج السنّة: ١ / ٤٧٤ ـ ٤٧٩.

المساجد، ومنهم من يفضّل زيارة قبور شيوخهم على الحج، ومنهم من يجد عند قبر من يعظّمه من الرقة والخشوع ما لا يجده في المساجد والبيوت، وغير ذلك مما يوجد في الشيعة. ويروون أحاديث مكذوبة من جنس أكاذيب الرافضة...

قيل: هذا كلّه ممّا نهىٰ الله عنه ورسوله، وكلّ ما نهى الله عنه ورسوله فهو مذموم منهي عنه، سواء كان فاعله منتسباً إلى السنّة أو إلى التشيع».

ثمّ لم يتمالك نفسه، فأبدىٰ غيظه وحقده على الشّيعة فقال:

«ولكن الامور المذمومة المخالفة للكتاب والسنّة في هذا وغيره، هي في الرافضة أكثر منها في أهل السنّة، فما يوجد في أهل السنّة ففي الرافضة أكثر منه، وما يوجد في الرافضة من الخير ففي أهل السنّة أكثر منه».[١]

وفي مشابهات الشيعة والنصارىٰ قال أيضاً:

«وكذلك الغلاة في العصمة، يعرضون عمّا أمروا به من طاعة أمرهم والإقتداء بأفعالهم إلى ما نهوا عنه من الغلو والإشتراك بهم، فيتخذونهم أرباباً من دون الله، يستغيثون بهم في مغيبهم وبعد مماتهم وعند قبورهم... فالمشاهد المبنيّة على قبور الأنبياء والصالحين من العامّة ومن أهل البيت كلّها من البدع المحدثة المحرّمة في دين الإسلام...».[٢]

زيارة قبر النبيّ

حتّىٰ تعرّض لزيارة قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقال:

«والأحاديث المأثورة عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في زيارة قبره، كلّها ضعيفة بل موضوعة...».

---

١. منهاج السنة ٢ / ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

٢. المصدر: ٢ / ٤٤١.

إقامة المأتم

وتكلّم على إقامة المآتم... فجعل ذلك من حماقات الشيعة:

«ومن حماقتهم إقامة المأتم والنياحة علىٰ من قد قتل من سنين عديدة. ومن المعلوم أن المقتول وغيره من الموتىٰ إذا فعل مثل ذلك بهم عقب موتهم، كان ذلك ممّا حرّمه الله ورسوله...

وهؤلاء يأتون من لطم الخدود وشق الجيوب ودعوىٰ الجاهلية وغير ذلك من المنكرات بعد موت الميت بسنين كثيرة، ما لو فعلوه عقب موته لكان ذلك من أعظم المنكرات التي حرّمها الله ورسوله، فكيف بعد هذه المدة الطويلة...

ومن المعلوم أنه قد قتل من الأنبياء وغير الأنبياء ظلماً وعدواناً من هو أفضل من الحسين...».[1]

وأفصح عن تضجّره لإقامة الشيعة المآتم على السبط الشهيد أبي عبدالله الحسين عليه السّلام فقال:

«وكذلك حديث عاشوراء... وأقبح من ذلك وأعظم: ما تفعله الرافضة من اتّخاذه مأتماً يقرأ فيه المصرع، وينشد فيه قصائد النياحة...».[2]

وحتّىٰ الحزن... حتّى على فقد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسّلم، ينهى عنه ابن تيميّة ويمنعه:

«ثمّ إنّ هؤلاء الشيعة وغيرهم يحكون عن فاطمة من حزنها على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ما لا يوصف، وأنها بنت بيت الأحزان، ولا يجعلون ذلك ذمّاً لها، مع أنه حزن على أمرٍ فائت لا يعود. وأبوبكر إنما حزن عليه في حياته خوف

---

١. منهاج السنّة: ١ / ٥٢ ـ ٥٥.

٢. المصدر: ٨/ ١٥١.

أن يقتل، وهو حزن يتضمّن الإحتراس، ولهذا لمّا مات لم يحزن هذا الحزن، لأنه لا فائدة فيه!»[١]

أقول:

كان الغرض من ذكر هذه النصوص معرفة ابن تيميّة عقيدةً وعلماً وعدالةً.

وقد كفانا علماء الفريقين مؤنة الجواب عن ذلك كلّه... بذكر الأدلّة الكثيرة عن النبي، الدالّة على جواز زيارة القبور والبكاء على الميّت، قولاً وفعلاً وتقريراً، والمخرّج جملةٌ منها في الصحيحين وغيرهما من الكتب السنّة، وكذا عن غيره صلّى الله عليه وآله وسلّم قولاً وفعلاً وتقريراً، متابعةً له وعملاً بسنّته، وإنّ المستفاد من مجموعها أنّ المنع إنّما كان سنّةً من عمر بن الخطّاب.

وأما في خصوص زيارة قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقد كتب عدّة من أئمّة المذاهب ردوداً على ابن تيميّة، حتّىٰ أنّ بعض من كان من أصحابه انحرف عنه وباعده لأجل ذلك وردّ عليه.

وأما البناء على القبور، فالشواهد من المسلمين على جوازه كثيرة جدّاً، ممّا يدلّ على قيام السيرة القطعيّة منهم الكاشفة عن رضا الشارع، ومن ذلك ما جاء في كلام الحافظ الذهبي بترجمة العباس عمّ النبيّ:

«ودفن بالبقيع، وعلى قبره اليوم قبّة عظيمة من بناء خلفاء آل العبّاس».[٢]

الإستغاثة

وأمّا التوسّل والاستغاثة والاستشفاع... فقد ألّفوا في جواز ذلك كتباً كثيرة، ويكفينا هنا قول الذهبي ـ وكأنّه يقصد التعريض بابن تيميّة:

---

١. منهاج السنة: ٨ / ٤٥٩.

٢. سير أعلام النبلاء: ٢ / ٩٧.

«فو الله، ما يحصل الإنزعاج لمسلم والصّياح وتقبيل الجدران وكثرة البكاء، إلّا وهو محبّ لله ولرسوله، فحبّه المعيار والفارق بين أهل الجنّة وأهل النار، فزيارة قبره من أفضل القرب... فشدّ الرجال إلى نبيّنا مستلزم لشدّ الرحل إلى مسجده، وذلك مشروع بلا نزاع، إذ لا وصول إلى حجرته إلّا بعد الدخول إلى مسجده، فليبدأ بتحيّة المسجد، ثم بتحيّة صاحب المسجد، رزقنا الله وإيّاكم. آمين».(١)

وقوله بترجمة معروف الكرخي:

«وعن إبراهيم الحربي قال: قبر معروف الترياق المجرّب.

يريد إجابة دعاء المضطرّ عنده، لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء...».(٢)

وقال الذهبي بترجمة غير واحدٍ من الأعلام:

«كان ورعاً، تقيّاً، محتشماً يتبرّك بقبره».(٣)

«قبره مشهور يزار ويدعىٰ عنده».(٤)

«قبره يقصد بالزيارة».(٥)

وسنذكر فيما بعد موارد اخرى إن شاء الله.

وبعد:

فههنا بحوث:

---

١. سير أعلام النبلاء: ٤ / ٤٨٤ و ٥ / ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

٢. المصدر: ٩ / ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

٣. المصدر: ١٨ / ١٠١.

٤. المصدر: ١٩ / ٥٣.

٥. المصدر: ٢٠ / ٩٦.

البحث الأوّل

زيارة القبور

إن زيارة قبور رسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمة الهداة من عترته، وكذا زيارة قبور الشهداء والصّالحين، كانت ولا زالت من أفضل الأعمال والعبادات والطّاعات عند المسلمين، وقد جرت سيرتهم على ذلك منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا.

زيارة قبر الرّسول بالكتاب

إنه يمكن الاستدلال لزيارة قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[١]؛

بناءً على ظهور الآية في الإطلاق وأنّه لا فرق بين حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله ومماته. وهذا ما تشهد به الأحاديث الآتية وعمل الصحابة وغيرهم كما سيأتي وخاصّة حديث الأعرابي، وهو ما فهمه العلماء من الآية المباركة، فعن الحافظ السمهودي عن الحافظ السبكي أن العلماء فهموا من الآية العموم لحالتي الموت والحياة، واستحبّوا لمن أتى القبر أنْ يتلوها.[٢]

---

١. سورة النساء، الآية ٦٤.

٢. كشف الارتياب عن مذهب ابن عبدالوهاب: ٢٥٦.

أقول:

وذلك ما رواه علماؤنا الأقدمون عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام في كيفية زيارة جدّهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، إذ جاء فيها ذكر الآية المباركة.

زيارة قبر الرّسول في الأخبار

ومن الأحاديث الواردة في الباب، المقبولة عند الفريقين:

*** قوله صلّى الله عليه وآله: من زار قبري وجبت له شفاعتي.**

وهذا الحديث ـ في الحقيقة ـ أمر منه بزيارة قبره الشريف، ولولا ترتب الأثر على ذلك لما أمر. مضافاً إلى أنه قد وعد الزائر لقبره بالشفاعة، ولا ريب أن كلّ الناس يرجون شفاعته.

وقد روى هذا الحديث من أئمّة أهل السّنة جماعة كبيرة:

كابن خزيمة النيسابوري ـ الملقّب عندهم بإمام الأئمّة ـ في صحيحه، وكلٌّ من الدارقطني والبيهقي في السنن، والقاضي عياض في الشفاء، والدولابي في الكنى والأسماء، وابن عساكر في تاريخه، والسيوطي والمتقي الهندي وآخرون.

وقد أثبت الحافظ السبكي اعتبار الحديث.(١)

*** قوله صلّى الله عليه وآله: من جاءني زائراً لا يعلم له حاجة إلّا زيارتي، كان حقّاً عليَّ أنْ أكون له شفيعاً يوم القيامة.**

أخرجه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم والدارقطني، وهو في مختصر تاريخ دمشق، وفي المواهب اللدنّية وغيرها.(٢)

*** قوله صلّى الله عليه وآله: من حجّ فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي.**

---

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ٨.

٢. المعجم الكبير: ١٢ / ٢٢٥؛ مختصر تاريخ دمشق: ٢ / ٤٠٦؛ المواهب اللدنية: ٤ / ٥٧١؛ وفاء الوفا: ٤ / ١٣٤٠؛ إحياء علوم الدين: ١ / ٢٣١.

أخرجه أبو يعلى في مسنده، والطبراني، والدارقطني، والبغوي، والبيهقي، وابن عساكر، و غيرهم.

فعل الصحابة:

هذا، ويكفي من فعل الصّحابة هذا الخبر الصحيح الذي أخرجه كبار أئمة الحديث وحفاظّه المشاهير، فقد أخرج الحاكم النيشابوري في المستدرك على الصحيحين بسنده قال:

«أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وَجهه (جبهته) علىٰ القبر، فأخذ برقبته، وقال: أتدري ما تصنع؟

قال: نعم.

فأقبل عليه فإذا هو أبو أيّوب الأنصاري.

فقال: جئت رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولم آت الحجر. سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن إبكوا عليه إذا وليه غير أهله».

وبعد أن نقل الحاكم هذا الحديث، قال:

«حديث صحيح».

ووافقه الذهبي علىٰ ذلك.[1]

ولا يخفى ما في هذا الأثر من دلالات!

وعليه، فإنّ هذا الأمر كان معروفاً ومرسوماً في صدر الإسلام عند الصحابة واستمرّت سيرتهم عليه.

---

١. المستدرك على الصحيحين: ٤ / ٥١٥؛ مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ٤٢٢؛ تاريخ مدينة دمشق: ٥٧ / ٢٥؛ مجمع الزوائد: ٥ / ٢٤٥؛ فيض القدير: ٦ / ٥٠١ و ٥٠٢، الحديث ٩٧٢٨.

وقال إبن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري:

«استنبط بعضهم من مشروعيّة تقبيل الأركان، جواز تقبيل كلّ ما يستحقّ التعظيم، من آدميّ وغيره.

فأمّا تقبيل يد الآدمي فيأتي في كتاب الأدب، وأمّا غيره، فنقل عن الإمام أحمد أنّه سئل عن تقبيل منبر النبي صلّى الله عليه وآله وتقبيل قبره، فلم ير به بأساً».[١]

ومن قضيّة مروان وأبي أيوب الأنصاري يظهر أن الأصل في المنع من زيارة قبر الرّسول هم بنو اميّة وليس غيرهم من الصّحابة، وإنما قصد ابن تيميّة تجديد ما أسّسه بنو أُميّة، فهذه القضيّة من جملة الشواهد على أن الرجل وكذا الوهابيّة كلّهم أتباع بني أميّة.

روايات زيارة القبور

ثمّ إنّه قد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في زيارة قبور المؤمنين، ومن ذلك ما رواه مسلم النيشابوري في صحيحه، عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، إنّه قال:

«كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها».[٢]

---

١. فتح الباري: ٣ / ٣٨٠؛ نيل الأوطار: ٥ / ١١٥.

٢. صحيح مسلم: ٣ / ٦٥؛ مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ٣٥٥؛ سنن إبن ماجة: ١ / ٥٠١؛ الحديث ١٥٧١؛ سنن الترمذي: ٢ / ٢٥٩؛ المستدرك على الصحيحين: ١ / ٣٧٤ ـ ٣٧٥؛ سنن أبي داوود: ٢ / ٨٧، الحديث ٣٢٣٥؛ السنن الكبرى، للبيهقي: ٤ / ٧٦؛ مجمع الزوائد: ٣ / ٥٨؛ فتح الباري: ٣ / ١١٨؛ عمدة القاري: ٨ / ٦٩؛ مسند إبن جعدة: ٢٩٣؛ المصنف: ٣ / ٢٣٣؛ مسند إبن راهويه: ١ / ٢٤٥، الحديث ٢٠٥؛ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ١٨٤؛ السنن الكبرى، للنسائي: ١ / ٦٥٤، الحديث ٢١٥٩؛ مسند أبي يعلى: ١ / ٢٤٠؛ صحيح إبن حبّان: ٣ / ٢٦١ و.... .

وهذا الحديث في السنن الكبرىٰ للنسائي، وسنن الترمذي، وأخرجه الحاكم النيشابوري في المستدرك علىٰ الصحيحين.

وجاء في حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وآله:

«ألا فزوروا القبور، فإنّها تُزهِّد في الدُّنيا وتُذَكِّر في الآخرة».[١]

وبهذا المضمون أحاديث كثيرة، رواها: مسلم في الصحيح، وأحمد بن حنبل.

وهي في صحيح إبن ماجة، والسنن الكبرىٰ للبيهقي، والمستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم النشابوري، وغيرها من المصادر أيضاً.

زيارة القبور في أقوال العلماء

وجاء في كتاب المرقاة في شرح المشكاة:

«الأمر فيها (يعني في زيارة القبور) للرخصة أو الإستحباب، وعليه الجمهور، بل إدّعىٰ بعضهم الإجماع، بل حَكىٰ إبن عبد البرّ عن بعضهم وجوبها».[٢]

وجاء في كتاب التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول:

«الأمر للندب عند الجمهور، والوجوب عند إبن حزم ولو مرّة واحدة في العمر».[٣]

لقد كانت قبور عظماء الدين موضع إحترام المسلمين جميعاً، فكان أهل كلٍّ مذهب من المذاهب يزورون قبور علمائهم وعظمائهم، ويبنون لهم مراقد وأضرحة،

---

١. مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ٣٥٥؛ صحيح مسلم: ٣ / ٦٥؛ سنن إبن ماجة: ١ / ٥٠١؛ السنن الكبرى للبيهقي: ٤ / ٧٧؛ المستدرك على الصحيحين: ١ / ٣٧٥؛ المعجم الكبير: ٥ / ٨٢؛ فتح الباري: ٤ / ١٣٦؛ الجامع الصغير: ٢ / ٢٩٧، الحديث ٦٤٢٩.

٢. المرقاة في شرح المشكاة: ٤ / ٢٤٨؛ تحفة الأحوذي: ٤ / ١٣٥.

٣. التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول: ١ / ٤١٨.

ويهتمّون بتشييدها وترميمها علىٰ مرّ الزمـان، ويـتبرّكـون بـها ويـنذرون ويـقيمون المراسم تخليداً لهم.

ومن الواضح أنَّ قبور الأئمّة عليهم السّلام تختلف عن سائر القبور، لأنّ أئمّتنا عليهم السّلام هم موضع إحترام كلِّ الأُمَّة الإسلاميّة، وإنَّ آثار وبركات زيارتهم مسلَّمة عند الجميع ولا شكَّ فيها.

علماء أهل السنَّة وسيرة الزيارة

هذا، وكما أشرنا من قبل، فإنَّ زيارة قبور الأئمَّة عليهم السّلام والتوسّل بهم إلىٰ الله كان أمراً رائجاً، وهو إلى الآن من السنن الجارية، وليس فقط الأئمّة بل تزار أيضاً قبور أبناءهم وأحفادهم الصالحين.

وكمثال علىٰ ذلك، ما ذكره الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد في كلام له حول مزار الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام، فقد روى عن أحد كبار الحنابلة في زمانه وهو أبوبكر الخلّال، أنّه قال:

«ما همَّني أمرٌ فقصدت قبر موسى بن جعفر عليهما السّلام فتوسّلت به إلّا سهَّل الله لي ما أُحبُّ».[١]

وما ذكره الحافظ إبن حجر العسقلاني عن الحاكم النيشابوري. قال:

«سمعت أبابكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسىٰ يقول: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي‌بكر إبن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعةٍ من مشايخنا ـ وهم إذ ذاك متوافرون ـ إلىٰ زيارة قبر علي بن موسى الرضا عليهما السّلام

---

١. تاريخ بغداد: ١ / ١٣٣، يقول الذهبي عن أبي‌بكر الخلّال: «الإمام الفقيه المحدِّث المجوّد... وثّقه الخطيب، وقال: توفي سنة ٣٧١. سير أعلام النبلاء: ١٦ / ٣٥٩.

بـ«طوس». قال: فرأيت من تعظيمه ـ يعني إبن خزيمة ـ لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرّعه عندها ما تحيَّرنا».[١]

ويلاحظ إنَّ الحاكم النيشابوري وابن حجر قد رويا زيارة كبار علمائهم لقبور أئمّتنا وتوسّلهم بهم، ولم ينقلا عن أحدٍ أيّ إيرادِ على ذلك، وهو يؤكّد أنّ الكلّ على هذه العقيدة وعليه العمل عند الكلّ.

وإذاكان الآخرون يعتقدون بمثل هذا الإعتقاد في زيارة قبور الائمّة وبمقاماتهم عندالله، فنحن أولىٰ منهم بالإيمان والتمسّك بهذا المعتقد.

زيارة قبور العلماء والمشايخ

ثم إنّ كبار الحفّاظ يصرّحون بكتب التراجم بزيارتهم للقبور:

قال ابن كثير بترجمة علي بن نصر الإربلي:

«قبره يزار وقد زرته غير مرة».[٢]

وقال بترجمة ابن العجمي: «كان قبره يزار...».[٣]

وقال الذهبي بترجمة أبي القاسم الخرقي: «قبره يزار. قال أبوبكر الخطيب: زرت قبره».[٤]

وقال بترجمة الشاشي: «زرت قبره بهراة».[٥]

---

١. تهذيب التهذيب: ٧ / ٣٣٩.

٢. البداية والنهاية: ١٢ / ٣٥٣.

٣. المصدر: ١٣ / ٢٦٠.

٤. سير أعلام النبلاء: ١٥ / ٣٦٣.

٥. المصدر: ١٨ / ٥٢٥.

وقال بترجمة الوركي: «زرت قبره».[١]

وتجد ذلك في مواضع من كتاب الأنساب للحافظ السمعاني.[٢] وهكذا في غيره من الكتب.

نظرة في بركات المشاهد المقدّسة

ثمّ إنّا عندما نحضر مشاهد الأئمّة عليهم السّلام ومراقدهم الطّاهرة تتغيَّر حالاتنا المعنويّة تغيُّراً إيجابيّاً ملموساً، فإنَّ الواحد منّا في المشاهد المقدَّسة يلتزم، ولو لا إراديّاً بالأحكام الشرعيّة، وليس يعمل بالواجبات ويترك المحرّمات فقط، وإنَّما حتّى المستحبّات والآداب والأخلاق الإسلاميّة.

فنحن نجد هذا التغيُّر في أنفسنا وفي الآخرين، ونشعر به حقيقةً، ولا يمكن لأحدٍ إنكاره، وهذا من جملة بركات الزيارة.

والأثر المعنوي الآخر للزيارة هو إنَّ الزائرين يكونون بصدد تعلّم مزيدٍ من المعارف الدينيّة والأحكام الشّرعيّة، ويسألون من بعضهم البعض عن مزيد من الأعمال العباديَّة وما ينبغي أن يقوم به الزائر في هذا المشهد الشريف، توخّياً للثواب الأكثر، فهم في حالة التحقيق والتعلّم والسؤال عن أفضل الأعمال التي تقرّبهم إلىٰ الله تعالىٰ من أجل القيام بها.

وقد اتّفق لكاتب هذه السّطور مراراً وتكراراً أن سُئل من قبل الزائرين عن أفضل الأعمال وأكثرها ثواباً في هذه المشاهد.

نعم، إنَّ الشيعة، وبلطفٍ من الله، لا يوجد فيهم خُبث باطنيّ وشقاوة تمنعهم من التأثر بمعنويّات هذه المشاهد المقدَّسة.

---

١. المصدر: ١٩ / ١٠٦.

٢. انظر مثلاً: ١ / ١٤٤ و ٢ / ٢٧٨ و ٣ / ١٢٥ و ٤ / ٥٢ و ٢٢١ و ٣٣٥ و ٣٤٦.

إنَّ الشيعي، عندما يدخل حرم أميرالمؤمنين أو حرم سيدالشهداء الحسين أو الإمام الرضا عليهم السّلام، يرىٰ نفسه في بحر من نور يغمر كلَّ جوارحه وجوانحه، فيخرج لا محالة نظيفاً طاهراً من كلِّ ما علق بروحه من أدران عالم الدنيا.

وما زال علماء الطّائفة يوصون الزائرين بحفظ هذه النورانيّة والطهارة المعنويّة، وأنه متى ما أحسّوا بقلّتها أو ضعفها عليهم أن يبادروا إلىٰ زيارة أحد تلك المشاهد المقدَّسة للإستزادة من نورانيَّة مراقد أئمَّة أهل البيت عليهم السّلام، حتّىٰ تصير مَلَكَةً فيهم مدىٰ الحياة.

فليس إعتباطاً كلُّ هذا التأكيد الَّذي ورد في كتب الشيعة والسنَّة علىٰ زيارة رسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمَّة الأطهار عليهم السّلام، بل وحتّىٰ قبور المؤمنين، وقد كانت سيرة كلِّ المتشرّعة ولا زالت قائمة علىٰ ذلك.

ومن هذا المنطلق، فإنَّنا نزور الأئمَّة عليهم السّلام في حياتهم، ونزورهم في مراقدهم بعد إستشهادهم، ونلوذ بقبورهم، ونتوسّل بهم إلىٰ الله. فهذه الزيارات والتوسّلات في واقع الأمر هي لإيجاد حالة إرتباطٍ معنوي مع حضرات الأئمَّة عليهم السّلام، وبهذه الطريقة نتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ نخاطبهم قائلين:

لائِذٌ عَائِذٌ بِقُبُورِكُمْ

وتختلف هذه العبارة عن سابقتها من جهتين:

الاولىٰ: في العبارة السابقة قلنا «زائرٌ». وهنا نقول «لائذ عائذ».

الثانية: في العبارة السابقة قلنا «زائر لكم». وهنا نقول «بقبوركم».

قال الراغب الإصفهاني في المفردات في غريب القرآن:

«عوذ: العوذ الإلتجاء إلى الغير والتعلُّق به، يقال: عاذ فلانٌ بفلان، ومنه قوله تعالىٰ:

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١] .[٢]

وقال في «لوذ»:

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً﴾[٣].

هو من قولهم: لاوذ بكذا يلاوذ لواذاً وملاوذة: إذا استتر به...».[٤]

إذن، فهذان اللفظان متقاربان بالمعنىٰ والثاني أخص.

وعليه، فالإنسان يلوذ بقبر الإمام المعصوم عليه السّلام، لدفع خطرٍ أو طلب حاجةٍ أو نجاةٍ من بليّة.

ولا بأس في التذكير هنا،بأنّ الناس قبل الإسلام أيضاً كانوا يلوذون بقبور بعض العظماء في الحوادث، ممّا يدلُّ على أنّ ذلك من الامور الفطريّة وعليه جرت السّيرة العقلائيّة.

نماذج من التاريخ

ومن ذلك، قضيَّة الفرزدق الشاعر، فقد وقعت عداوة بين الفرزدق وأحد رجال العرب، وكان الحقّ مع الفرزدق، فخرج يطلبه، فالتجأ الرجل إلى قبر «غالب» والد الفرزدق، وكان شخصيّة مرموقة، ولاذ به. فأرسل إليه الفرزدق يؤمّنه وأعلن العفو عنه بلا قيد أو شرط.[٥]

وكان رجل مع الحجّاج في حربه ضدّ عبدالله بن الزبير، ولمّا إلتجأ إبن الزبير إلى

---

١. سورة البقرة: الآية ٦٧.

٢. المفردات في غريب القرآن: ٣٥٢.

٣. سورة النور: الآية ٦٣.

٤. المفردات في غريب القرآن: ٤٥٦.

٥. راجع كتاب: طبقات فحول الشعراء، لإبن سلام الجمحي: ٢ / ٣١٢.

الحرم، ورمىٰ الحجّاج الكعبة بالمنجنيق، إعترض عليه ذلك الرجل وهجاه بشعرٍ له وعاد إلى الشام.

فكتب الحجّاج إلى عبدالملك بن مروان في ذلك، فكتب عبدالملك بأنَّ الرجل قد لاذَ بقبر مروان بن الحكم، ولا سبيل لي إليه، فاتركه وشأنه.[١]

وذكر إبن أعثم في الفتوح، في أحوال الكميت الشاعر، في قصَّة غضب هشام ابن عبدالملك عليه وأمره بقتله: أن الكميت التجأ إلى قبر معاوية بن هشام ولاذ به، ولما وصل خبره إلى هشام عفىٰ عنه، فخرج من الشام.[٢]

نعم، وفي الكتب المؤلَّفة في أحوال الأئمَّة عليهم السّلام، أخبار كثيرة في إلتجاء الناس بهم في حياتهم وبقبورهم بعد إستشهادهم.

هذا، وعن الإمام الصّادق عليه السّلام في حديث طويل:

«نَحنُ كَهْفٌ لِمَنْ إلتجَأَ إلَينا»[٣]

وعن الباقر أنَّه قال في أهل البيت عليهم السّلام:

«هُم أمنٌ لِمَنْ إلتجَأَ إلَيهم و أمانٌ لِمَنْ تمسَّكَ بهم»[٤]

وعنه عليه السّلام أيضاً، قال:

«أيُّها الناس إنَّ أهْلَ بيت نَبيِّكُمْ شرَّفهم الله بكرامته... عصمة لمن لجأ إليهم و أمنٌ لِمَنْ إستجارَ بهم»[٥]

---

١. الأعلام للزركلي: ٢ / ٦.

٢. كتاب الفتوح لابن الأعثم: ٨ / ٢٧٤.

٣. الخرائج والجرائح: ٢ / ٧٤٠؛ بحارالأنوار: ٦٩ / ٤٤، في ذيل الحديث ٥٣؛ رجال الكشّي: ٤٤٨.

٤. اليقين: ٣١٩؛ بحارالأنوار: ٢٣ / ٢٤٦، ذيل الحديث ١٦.

٥. تفسير فرات: ٣٣٧ ـ ٣٣٨، الحديث ٤٦٠، بحارالأنوار: ٢٦ / ٢٥٥، الحديث ٣٠.

وجاء في الأخبار: أنَّ رجلاً في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله قد إرتكب خطيئةً، فالتجأ إلى الحسنين عليهما السّلام ولاذ بهما، فعفىٰ عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم.

ولمّا قُتِل طلحة والزبير في حرب الجمل، أُسر إبن طلحة، فلاذ بالحسنين عليهما السّلام، فعفىٰ عنه أميرالمؤمنين عليه السّلام وأطلق سراحه.

وفي الكافي، في خبر:

«لِموضع قبر الحسين عليه السّلام حرمةٌ معلومة من عرفها وإستجار بها أُجير»[1]

لواذ الحيوانات

بل لقد استجار الحيوانات بالأئمَّة عليهم السّلام فأجيرت.

ففي الخبر: أنَّ الإمام الرضا عليه السّلام كان جالساً ذات يوم وعنده أصحابه، فجاء عصفور وأكثر من الوصوصة عند الإمام عليه السّلام، فأمر أحد أصحابه بأن يأخذ شيئاً ويذهب إلىٰ عشّ هذا العصفور ويقتل حيَّة اقتربت من عُشّه، فإنّه إلتجأ إليه.[2]

وعن جابر الجعفي: إنَّه كان مع الإمام الباقر عليه السّلام في طريق الحجّ، فجاء حيوانٌ واقترب من محمل الإمام وقال شيئاً.

قال جابر: مددت يدي لأمسك الحيوان، فمنعني الإمام الباقر وقال:

«يا جابر، فإنّه إستجار بنا أهل البيت.»[3]

---

١. الكافي: ٤ / ٥٨٨، الحديث ٦؛ بحارالأنوار: ٩٨ / ١١٠، الحديث ١٩.

٢. بصائر الدرجات: ٣٦٥، الحديث ١٩؛ مناقب آل أبي طالب: ٣ / ٤٤٧؛ وسائل الشيعة: ١١ / ٥٣٧، الحديث ١٥٤٧٧؛ بحارالأنوار: ٤٩ / ٨٨، الحديث ٨.

٣. الخرائج والجرائح: ٢ / ٦٠٤، الحديث ١٢؛ بحارالأنوار: ٤٦ / ٢٤٨، الحديث ٣٨.

وفي رواية أُخرىٰ، أنَّ ظبياً إقترب من الإمام الصادق عليه السّلام وقال له شيئاً، فقال الإمام:

«أفعل إنْ شاء الله»

فلمّا إنصرف الظبي، قال عليه السّلام:

«إستجار بي الظبي وأخبرني أنَّ بعض من يصيد الظباء بالمدينة صاد زوجته».[١]

الإلتجاء بالحرم وحكمه الشرعي

هذا، وفي الفقه في كتاب الحدود أنَّه لو ارتكب الإنسان جرماً خارج الحرم، فدخل الحرم لائذاً، وجب الصبر عليه حتّىٰ يخرج.[٢]

وفي الفقهاء من أجرىٰ هذا الحكم بالنسبة إلىٰ العائذ بقبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وقبور الأئمَّة عليهم السّلام.

قال الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب المقنعة:

«ولا تقامُ الحدود في المساجد ولا في مشاهد الأئمَّة عليهم السّلام. ومن فعل في المساجد أو المشاهد ما يوجب إقامة الحدِّ عليه، اُقيم عليه الحدُّ خارجاً منه ولم تقم عليه الحدود فيها».[٣]

وكذا قال الشيخ الطوسي رحمه الله في النهاية.[٤]

---

١. الخرائج والجرائح: ١ / ٢٩٩، الحديث ٥؛ بحارالأنوار: ٤٧ / ١١٢، الحديث ١٤٩.

٢. شرح اللمعة الدمشقيَّة: ٢ / ٣٢٣.

٣. المقنعة: ٧٨٣.

٤. النهاية: ٧٠٢.

وقال القاضي ابن البرّاج، في كتاب المهذّب:

«وإذا إلتجأ إلىٰ حرم الله أو حرم رسوله أو أحد الأئمّة عليهم السّلام لم يُقم الحدُّ عليه فيه». (١)

وقال إبن إدريس في السرائر:

«وإذا إلتجأ إلىٰ حرم الله سبحانه أو حرم رسوله أو أحد الأئمّة عليهم السّلام لم يُقَم عليه الحدُّ فيه». (٢)

يلحق بذلك:

١ـ تقبيل القبر والتبرّك به.

٢ـ بناء القبر والإسراج عليه.

٣ـ الصّلاة والدعاء عند القبر.

فهنا امور:

الأمر الاوّل

تقبيلُ القبر والتبرّك به

ثم إنّ مقتضى الأصل الأوّلي في أفعال المكلّفين هو الحلّ والإباحة، وقد تقرّر هذا الأصل عند علماء الفريقين في كتب اصول الفقه، إلى أن يقوم الدليل الشرعي على المنع، كسائر المباحات في الشريعة المقدّسة.

وقد كان المسلمون منذ صدر الإسلام يتبرّكون بقبر الرّسول صلّى الله عليه وآله ويقبّلونه لدى زيارته، وما زالوا على ذلك حتى اليوم.

ومن ذلك: ما تقدّم في الحديث الصحيح من فعل الصّحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري. بل لقد تقدّم عن أحمد القول بجواز تقبيل منبر النّبي صلّى الله عليه وآله.

وسيأتي تبرّك الزهراء الطّاهرة بتراب قبره.

ومن ذلك: تبرّك عبدالله بن عمر، فقد روي أنه كان يضع يده اليمنى على القبر الشريف، وأنه قد وضع خدّه عليه كذلك.[1]

ومن ذلك: تبرك بلال، فقد روي أنه رأىٰ النبيّ صلّى الله عليه وآله في المنام فقال له:

ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني؟

---

١. شرح الشفاء: ٢ / ١٩٩؛ وفاء الوفا: ٤ / ١٤٠٥.

فانتبه بلال حزيناً وركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر النبيّ فجعل يبكي عنده ويتمرّغ عليه.[١]

وفوق ذلك كلّه: عمل الزهراء الطاهرة المعصومة عليها الصّلاة والسّلام، فقد روى الفريقان عن أميرالمؤمنين عليه السّلام أنه: لما رمس رسول الله صلّى الله عليه وآله جاءت فاطمة، فوقفت على قبره صلّى الله عليه وآله، وأخذت قبضةً من تراب القبر ووضعته على عينها وبكت وأنشأت تقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... أنْ لا يشم مدى الزمان غواليا

صبّت عليَّ مصائب لو أنها ... صبّت على الأيّام صرن لياليا[٢]

بل، لقد كان من عمل الصحابة وسائر المسلمين الأخذ من تراب قبره الشريف المتبرك، وهذا ما نصَّ عليه الحافظ السمهودي في كتابه في تاريخ المدينة المنوّرة، إذ قال:

كانوا أي الصحابة وغيرهم يأخذون من تراب قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله، فأمرت عائشة فضرب بالكوّة فسُدّت.[٣]

بل، روى الحافظ السّمهودي أخذ الناس من تراب قبر سيّدنا حمزة عليه السّلام، قال:

قال ابن فرحون: والناس اليوم يأخذون من تربة قريبةٍ من مشهد سيّدنا حمزة ويعملون خرزاً يشبه التسبيح».[٤]

---

١. سير أعلام النبلاء: ١ / ٣٥٨؛ اسد الغابة: ١ / ٢٠٨؛ شفاء السقام: ٣٩.

٢. ارشاد الساري: ٣ / ٣٥٢؛ المواهب اللدنية: ٣ / ٤٠٠؛ وفاء الوفا: ٤ / ١٠٤؛ الاتحاف بحبّ الأشراف: ٩٠؛ مشارق الأنوار للحمزاوي: ٦٣ و غيرها.

٣. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: ١ / ٥٤٤.

٤. المصدر: ١ / ١١٦.

ومنهم من كان يأخذ من تراب قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله إذا سافر خارج المدينة وجعله مسجداً له في صلواته:

بل، لقد كانوا يتبرّكون بسائر آثار النبيّ صلّى الله عليه وآله، وإليك بعض الأخبار في ذلك:

١ـ عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله والحلّاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلّا في يد رَجُلٍ.[١]

٢ـ وعن محمد بن سيرين:

قلت لعبيد: عندنا من شعر النبي صلّى الله عليه وآله من قِبل أنس.

قال: لأن يكون عندي شعرة منه أحبَّ إليَّ من الدنيا وما فيها.[٢]

٣ـ وعن كبشة قالت: دخل عليَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله فَشَرِب من في قربةٍ معلّقةٍ قائماً إلى فيها. فقطعتُهُ.[٣]

وعن ابن ماجة في سننه زيادة: تبتغي بركة موضع فيّ رسول الله صلّى الله عليه وآله.[٤]

ثم إن الترمذي حسَّن الحديث وصحَّحه[٥].

ورواه أحمد عن أنس عن أمّ سليم.[٦]

---

١. جامع الأصول: ١٠٢/٤. وكانوا يقتتلون على قطرات وضوئه للأستشفاء بها. البخاري: ٣٥/٣، الرقم ١٨٧؛ تاريخ الطبري: ٣ / ٢٧٥.

٢. المصدر نفسه.

٣. الجامع الصحيح للترمذي: ٤ / ٣٠٦، الرقم ١٤٩٢.

٤. سنن ابن ماجة: ٢ / ١١٣٢، الرقم ٣٤٢٣.

٥. الجامع الصحيح للترمذي: ٤ / ٣٠٦.

٦. مسند أحمد: ٣ / ١١٩.

٤ـ إن سهل بن سعد حدّث من حوله: أن النبيّ صلّى الله عليه وآله جلس هو وأصحابه في سقيفة بني ساعدة، وطلب من سهل أن يسقيه ماءً، قال: فأخرجتُ له هذا القدح فأسقيتُهم فيه. قال الرّاوي: فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال: ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك، فوهبه له.

قال البخاري: رأيت هذا القدح بالبصرة وشربتُ منه، وكان أُشتري من ميراث النضر بن أنس، بثمانمائة ألف.[١]

٥ ـ التبرّك بالنبيّ صلّى الله عليه وآله: عن عائشة أن النبيّ صلّى الله عليه وآله كان يؤتى بالصبيان فيبرّك عليهم.[٢]

٦ـ الإستشفاء بجبةِ النبيّ صلّى الله عليه وآله:

أخرج مسلم عن أسماء بنت أبي بكر... هذه جبّة رسول الله صلّى الله عليه وآله فَاخرجت إليّ جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفَرجيها مكفوفين بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة حتّى قبضت، فلما قبضت قبضتها وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها.[٣]

ولا بأس بإيراد هذا الخبر من كتاب الوافي بالوفيات للصّفدي، بترجمة المهدي العبّاسي، قال:

وجلس المهدي جلوساً عامّاً، فدخل عليه رجل وفي يده منديل فيه نعل فقال:

يا أميرالمؤمنين، هذه نعل رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أهديتُها لك.

فأخذها منه وقبّل باطنها ووضعها عَلَى عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم.

---

١. فتح الباري: ١٠١ ـ ١٠٣.

٢. الاستيعاب: ١ / ٥ عن صحيح مسلم.

٣. صحيح مسلم: ٣ / ٣١٤، كتاب اللباس.

فلما خرج الرجل، قال لجلسائه: أتروني أني أعلم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها. ولو كذّبناه لقال للنّاس: أتيتُ أميرالمؤمنين بنعل رسول الله صلّى الله عليه وآله فردّها عليّ، وكان من يصدّقه أكثر ممن يكذّبه، إذ كان من شأن العامّة الميل إلى أشكالها والنصرة للضّعيف على القويّ وإن كان ظالماً، فاشترينا لسانه وقبلنا هديّته وصدّقنا قوله، وكان الذي فعلناه أرجح وأنجح.(١)

الأمر الثاني
بناء القبر والإسراج عليه

وكذلك بناء القبور، فإنّ الأصل فيه هو الإباحة حتى يقوم الدليل على الحرمة، ولا دليل على ذلك، ولذلك، فإنّ من سيرة المسلمين بناء القبور، لاسيّما الشهداء والعلماء والصّالحين، وفيما يلي نماذج من ذلك:

١ـ قبر سلمان الفارسي:

قال الخطيب البغدادي: قبره الآن ظاهر معروف بقرب أيوان كسرى. عليه بناء، وهناك خادم مقيم لحفظ الموضع وعمارته والنظر في أمر مصالحه.(٢)

٢ـ قبر طلحة بن عبيدالله:

قال ابن بطوطة: مشهد طلحة بن عبيدالله... وهو بداخل المدينة، وعليه قبة ومسجد، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر.

ثمّ عدّ مشاهد في البصرة لجملة من الصحابة والتابعين فقال:

وعلى كلّ قبر قبّةٌ مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته.(٣)

---

١. الوافي بالوفيات: ٣ / ٣٠٢.

٢. تاريخ بغداد: ١ / ١٦٣.

٣. رحلة ابن بطوطة: ١ / ١٨٧.

٣ـ الزبير بن العوام:

قال ابن الجوزي: بنى عليه الأثير أبو المسك عنبر بناءً، وجعل الموضع مسجداً، ونقلت إليه القناديل والآلات والحصر والسمّادات، وأُقيم قوّام وحفظة، ووقف عليه وقوفاً.(١)

٤ـ أبو أيوب الأنصاري:

قال الوليد: حدّثني شيخ من أهل فلسطين: إنه رأى بنية بيضاء دون حائط القسطنطنية، فقالوا: هذا قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب النبيّ صلّى الله عليه وآله. فأتيت تلك البنية فرأيتُ قبره في تلك البنية، وعليه قنديل معلّق بسلسلة.(٢)

وقال ابن كثير: وعلى قبره مزار ومسجد.(٣)

٥ ـ مشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام:

قال الذهبي: له مشهد عظيم مشهور ببغداد. ولولده علي بن موسى مشهد عظيم بطوس.(٤)

٦ـ قبر أبي حنيفة:

قال ابن الجوزي: في هذه الأيام ـ يعني سنة ٤٥٩ ـ بنى أبو سعد المستوفي الملقب شرف الملك مشهد أبي حنيفة، وعمل لقبره ملبناً وعقد القبّة... .(٥)

٧ـ معروف الكرخي:

قال ابن الجوزي:... بُنيت تربة قبر معروف في ربيع الأول سنة ٤٦٠، وعقد

---

١. المنتظم: ١٤ / ٣٧٧.

٢. تاريخ بغداد: ١ / ١٥٤.

٣. البداية والنهاية: ٨ / ٦٥.

٤. سير أعلام النبلاء: ٦ / ٢٧٤.

٥. المنتظم: ١٦ / ١٠٠.

مشهداً زاجاً بالجص والآجر.[١]

٨ـ محمد بن إدريس الشافعي:

قال الذهبي: إن الملك الكامل عمّر قبّةً على ضريح الشافعي.[٢]

٩ـ قبر أبي عوانة:

قال الذهبي: بُنيَ على قبر أبي عوانة مشهد بأَسفرايين يزار، وهو في داخل المدينة.

الأمر الثالث

الصّلاة والدّعاء عند القبر

وكذلك الصّلاة عند القبور... وعليه العمل وسيرة المسلمين حتى اليوم... .

وعمل الصّديقة الطّاهرة كافٍ للإحتجاج، فقد اتفق المسلمون على رواية خبر زيارتها قبر سيّدنا حمزة عليه السّلام والصّلاة عنده، فقد رووا:

إنّ فاطمة عليها السّلام كانت تزور قبر عمّها حمزة في كلّ يوم جمعة، فتصلّي وتبكي عنده.[٣]

وأمّا الآخرون... فكثير:

عن الشافعي، قال: إني لأتبرّك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كلّ يوم، فإذا عرضت لي حاجة صلّيت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد حتى تقضى.[٤]

٣ـ معروف الكرخي: عن الزهري: قبر معروف الكرخي مجرّب لقضاء الحوائج،

---

١. المصدر: ١٦ / ١٠٥.

٢. دول الإسلام: ٣٤٤.

٣. المصنّف لعبد الرزاق: ٣ / ٥٧٤؛ المستدرك: ١ / ٣٧٧ وغيرهما.

٤. تاريخ بغداد: ١ / ١٢٣.

ويقال إنّه من قرأ عنده مائة مرّة هو الله أحد وسأل الله ما يريد، قضى الله حاجته.[١]

وقال إبراهيم الحربي: قبر معروف الترياق المجرّب. قال الذهبي: يريد إجابة دعاء المضطر عنده، لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء.[٢]

وعن أحمد بن الفتح قال: سألت بشراً التابعي الجليل عن معروف الكرخي؟ فقال: هيهات... فمن كانت له إلى الله حاجة فليأت قبره وليدع، فإنّه يستجاب له إن شاء الله.[٣]

وعن ابن سعد: يستسقى بقبره، وقبره ظاهر يزار ليلاً ونهاراً.[٤]

وعن سبط ابن الجوزي: أنه سمع مشايخه ببغداد يحكون أنّ عون الدين قال: كان سبب ولايتي المخزن أنني ضاق ما بيدي حتى فقدت القوت أياماً، فأشار عليَّ بعض أهلي أن أمضي إلى قبر معروف الكرخي، فأسألُ الله تعالى عنده، فإن الدعاء عنده مستجاب.

أقول:

ذكر غير واحدٍ من علماء الفريقين أن هذا الرّجل كان خادماً للإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام، ولكنَّ ابن تيمية وبعضهم لمّا ظنّ أنّ كون هذا الرجل الذي يستجاب الدعاء عند قبره خادماً للإمامِ من أئمّة أهل البيت عليهم السّلام يعدّ فضيلةً لهم، كذّبوا ذلك وأنكروه بشدّة، وقد ذكرنا بشرح منهاج الكرامة موجز الكلام حول إسلام الرجل على يد الإمام عليه السّلام. وقلنا هناك:

---

١. معجم الطبراني: ١ / ١٢٢؛ تاريخ بغداد: ١ / ١٢٢.

٢. سير أعلام النبلاء: ٩ / ٣٤٣.

٣. صفة الصفوة: ٢ / ٣٢٤.

٤. الطبقات الكبرى: ١ / ٢٧؛ وفيات الأعيان: ٥ / ٢٣٢.

فقد كذَّب ابن تيميّة[١] خبر إسلام معروف على يد الإمام الرضا عليه السّلام، كما كذَّب من قبل توبة بشر الحافي على يد الإمام موسى بن جعفر الكاظم... وقد جاء الخبر في أكثر من كتاب ومصدر، من ذلك قول ابن خلكان: «وهو من موالي علي ابن موسى الرضا وقد تقدّم ذكره، وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدّبهم وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه المعلّم على ذلك ضرباً مبرحاً، فهرب منه، وكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه. ثم إنه أسلم على يد علي بن موسى الرضا ورجع إلى أبويه، فدقّ الباب فقيل له: من بالباب؟ فقال: معروف. فقيل له: على أيّ دين؟ فقال: على الإسلام. فأسلم أبواه».[٢]

أقول:

لقد ذكروا بتراجمه كرامات عجيبة له، فحاولوا التكتم على كونه من موالي الإمام وعلى إسلامه على يده عليه السّلام، لئلّا يكون ذلك فضيلة له!!... .

فمنهم من لم يذكر كونه من مواليه ولا حكى إسلامه على يده، ولا روى عنه شيئاً مما سمعه من الإمام، كالحافظ أبي نعيم[٣] والحافظ ابن الجوزي.[٤]

ومنهم من اعترف بكونه من مواليه ولم يذكر عن إسلامه شيئاً، كالشعراني.[٥]

---

١. منهاج السنّة: ٤ / ٦١ ـ ٦٢.

٢. وفيات الأعيان: ٥ / ٢٣١.

٣. حلية الأولياء: ٨ / ٣٦٠.

٤. المنتظم: ١٠ / ٨٨.

٥. لواقح الأنوار: ١ / ٨٢.

ومنهم من حكى قصته مع المؤدب ثم رجوعه إلى أبويه بعد هربه وأنهما أسلما، ولم يزد على ذلك شيئاً، كالذهبي[١]... .

ومنهم من حكى أنه كان حاجاً للإمام فكسروا ضلعه فمات[٢]. وهذا ما كذّبه الذهبي فقال: «فلعلَ الرضا كان له حاجب اسمه معروف، فوافق اسمه اسم زاهد العراق».[٣]

أقول:

لكن مقامات أئمَة أهل البيت عليهم السّلام لا تزيد ولا تنقص بإثبات شيء من هذا القبيل أو إنكاره، بل الغرض المهم بيان مدى مخالفة هؤلاء لأهل بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله، وسعيهم وراء التقليل من شأنهم والحطّ من مقامهم!!.

٦ـ الحافظ العامري، عكف الناس على قبره ليالي يقرؤن القرآن ويدعون له.

٧ـ أبو بكر الإصبهاني: دفن بالحيرة من نيسابور ومشهده بها ظاهر يزار ويستسقى به وتجاب الدعوة عنده.[٤]

٨ـ السيدة نفيسة:

وهي ابنة أبي محمد الحسن بن زيد، قال ابن خلكان: دفنت بدرب السباع وقبرها معروف بإجابة الدعاء وهو مجرّب، رضي الله عنها.[٥]

---

١. سير أعلام النبلاء: ٩ / ٣٣٩.

٢. طبقات الصوفية: ٨٣.

٣. سير أعلام النبلاء: ٩ / ٣٤٣.

٤. وفيات الأعيان: ٤ / ٢٧٢.

٥. وفيات الأعيان: ٥ / ٤٢٤.

وهذه السيّدة ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق عليه السلام، وقيل: بل دخلت مع أبيها الحسن، وإن قبره بمصر لكنّه غير مشهور... وكانت نفيسة من النساء الصالحات التقيّات. ←

٩ـ نصر بن إبراهيم المقدسي شيخ الشافعية. قال النووي:
سمعنا الشيوخ يقولون: الدعاء عند قبره يوم السبت مستجاب.[١]

١٠ـ أبو الحسين المصري فقيه الشافعية: قال ابن الأنماطي: قبره بالفراقة يُعرف بإجابة الدعاء عنده.[٢]

← ويروى أن الشافعي لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث، وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم وهو إلى الآن باقٍ كما كان. ولمّا توفي الشافعي، ادخلت جنازته إليها وصلّت عليه في دارها، وكانت مقيمة في موضع مشهدها اليوم، ولم تزل به إلى أن توفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين.

ولما ماتت عزم زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق على حملها إلى المدينة ليدفنها هناك، فسأله المصريون بقاءها عندهم، وقبرها معروف بإجابة الدعاء... وفيات الأعيان: ٥ / ٤٢٤.

وقال الذهبي: قيل كانت من الصالحات العوابد والدعاء مستجاب عند قبرها، بل وعند قبور الأنبياء والصالحين... سير أعلام النبلاء: ١٠ / ١٠٧.

١. شذرات الذهب: ٥ / ٣٩٧، حوادث سنة ٤٨٨.

٢. المصدر: ٥ / ٤٠٢، حوادث سنة ٤٩٠.

البحث الثاني

الشفاعة

إنّ الإيمان بشفاعة رسول الله والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، ليس مختصّاً بالشيعة، بل هو حقيقة ثابتة عند كلٍّ المسلمين.

وهذا الإعتقاد الثابت، له جذور قرآنيّة وروائيّة قطعيّة.

ما هي الشفاعة؟

قال الراغب الإصفهاني في معنىٰ الشفاعة في كتابه المفردات في غريب القرآن:

«الشفعُ ضمُّ الشيءِ إلىٰ مِثلِه».[1]

ففي نافلة اللّيل، عندنا صلاة الوتر، وعندنا صلاة الشفع، والوتر هي الركعة الواحدة، ويقال للركعتين الأخيرتين من صلاة الليل «الشفع»، لأنّهما ركعتان مضمومتان إلىٰ بعضهما البعض، وتشكّلان صلاةً واحدة.

وفي الفقه «كتاب الشفعة» وهي حقّ الشريك في شراء حصّة شريكه إذا ما أراد بيعها، فالشريك أولىٰ من غيره بهذا الملك بأن يشتريه منه ويضمّه إلىٰ حصّته.[2]

ومن ثمّ قال الراغب الإصفهاني:

«الشفاعة، الإنضمام إلىٰ آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يُستعمل في

---

١. المفردات في غريب القرآن: ٢٦٣.

٢. راجع كتاب شرح اللمعة الدمشقيّة: ١٤٧، كتاب الشفعة.

إنضمام من هو أعلىٰ حرمةً ومرتبةً إلىٰ من هو أدنىٰ».[١]

فلكي يصل من هو أدنىٰ رتبةً إلىٰ مطلبه وغرضه، ينضمُّ إلىٰ من هو أعلىٰ رتبة منه، فيقال للأعلىٰ إنَّه شفيعٌ لفلان.

والمراد من الشفاعة في القرآن الكريم والروايات وكلمات العلماء، هو نفس هذا المعنىٰ العرفي اللغوي، وليس في البين إصطلاح خاص.

والسيرة الجارية عند العقلاء أنّهم يستشفعون في قضاء حوائجهم وتمشية أُمورهم بمن له وجاهة عند من بيده الأمر، وكذا حالهم مع الله عزَّوجلَّ، خاصَّةً وأنَّهم ينظرون إلىٰ ذنوبهم وخطاياهم وحقارتهم، ومن جهة أخرىٰ ينظرون إلىٰ عظمة الله وجلاله وكبريائه، ومن جهة ثالثة، يرون شدَّة العذاب المعدِّ للأشقياء. فلا يرون في أنفسهم الأهليّة واللّياقة للرّجاء والسؤال وطلب العفو، إلّا بالإستشفاع إليه بالمقرّبين منه.

وقد أجمعت الأمَّة الإسلاميَّة بأسرها علىٰ أن لا أقرب إلىٰ الله من محمّد والأئمَّة الأطهار عليهم السّلام جميعاً.

ثمَّ إنَّ هناك مقامات ومنازل للنبيّ وآله نصَّ القرآن في كلّ واحدٍ منها علىٰ أنّها لله جميعاً. ونحن نذكرها بإيجاز:

الولاية لله جميعا

فمنها: مقام الولاية، وهذا المقام في الأصل هو لله تعالىٰ، لأنّه الخالق للوجود، ومالك كلّ الموجودات، وإليه يعود تدبير كلّ أُمورها، يقول تعالىٰ:

﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾[٢]

---

١. المفردات في غريب القرآن: ٢٦٣.

٢. سورة الرعد: الآية ٣١.

ويقول تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾[١]

إذن، فالأمر بيدالله تعالىٰ. ثمَّ يقع البحث عن أنَّه هل إنَّ الله عزَّوجلَّ قد أعطىٰ هذا المقام لأحد من خلقه، وإذن له بالتصرّف في الوجود أو في شؤون الأشخاص أو غير ذلك؟

وإنْ كان قد فعل ذلك:

فلمن أذن؟

وما هي حدود ذلك الإذن؟

العزَّة لله جميعاً

ومنها: مقامُ العزَّة، بنحو الإطلاق، فإنَّه ملكٌ لله تعالىٰ أيضاً، يقول عزَّوجل:

﴿فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[٢].

فكلُّ من له عزَّة في هذا الوجود، فعزّته من الله تعالىٰ. ولكنَّ السؤآل هنا هو: هل إنّ الله تعالىٰ أعطىٰ من تلك العزَّة الإلهيَّة، المعنويَّة والحقيقيَّة، لأحدٍ من الخلق أم لا؟

القدرة لله جميعاً

ومنها: مقام القدرة والقوَّة، وهو لله تعالى بنحو الإطلاق. يقول القرآن الكريم:

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[٣].

فكلُّ من له قدرة وبأيِّ مقدارٍ وحدٍّ، فهي شعبةٌ من قدرة الله المطلقة في الوجود التي ليست إلّا لله عزّوجلّ.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

٢. سورة النساء: الآية ١٣٩.

٣. سورة البقرة: الآية ١٦٥.

علم الغيب لله

ومنها: مقام العلم بالغيب، وهو خاصٌ بالله تعالىٰ في الأصل. يقول القرآن الكريم:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[١].

فعلم الغيب لله تعالىٰ. ثمَّ هل إنَّ الله تعالىٰ أطلع عليه أحداً من خلقه؟ وإذا كان قد أطلع عليه أحداً، فمن هو؟

الشفاعة لله جميعاً

ونصّ القرآن الكريم على أنَّ الشفاعة جميعاً لله، قال عزَّوجلَّ:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

لكنَّ القرآن في نفس الوقت ينصّ علىٰ أنَّ الله عزَّوجلَّ قد أعطىٰ مقام الشفاعة للنبيّ الأكرم، وجعل له:

المقام المحمود

حيث قال في كتابه المجيد:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[٣]

فالباري عزَّوجلَّ قد أمر نبيَّه الأكرم صلّى الله عليه وآله بنافلة الليل، ووعده بأنْ يبلغ به مقاماً محموداً.

---

١. سوره النمل: الآية ٦٥.

٢. سورة الزمر: الآية ٤٤.

٣. سوره الإسراء: الآية ٧٩.

وقد فُسِّر المقامُ المحمود الذي وعد به في الآية الكريمة بالشفاعة، كما في الروايات الواردة عند الفريقين.

ففي الحديثُ في ذيل هذه الآية المباركة، إنَّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله قال لعليٍّ عليه السّلام:

«يا عليّ، إنَّ ربِّي عزَّوجل ملَّكني الشفاعة في أهل التوحيد من اُمّتي، وحَظر ذلك عمَّن ناصَبَك أو ناصَبَ وُلدك من بعدك».[1]

وجاء في رواية اُخرىٰ: إنَّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله قال في تفسير هذه الآية:

«المقام الَّذي أشفع فيه لاُمّتي».[2]

وفي رواية اُخرىٰ عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السّلام، إنَّه سُئل عن المَقام المحمود، فقال:

«هي الشفاعة».[3]

وجاء في تفسير «كنز الدقائق» في ذيل الآية المباركة، عنَ الإمام الكاظم عليه السّلام قال:

«يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً، وتؤمر الشمس فتركب على رؤوس

---

١. أمالي الشيخ الطوسي: ٤٥٥، الحديث ١٠١٧؛ كشف الغمّة: ٢ / ٢٨؛ تفسير نورالثقلين: ٢٠٧/٢، الحديث ٣٩٧.

٢. روضة الواعظين: ٥٠٠؛ كنز الدقائق: ٥ / ٥٩٣؛ مسند أحمد بن حنبل: ٢ / ٤٤١؛ عمدة القاري: ٥ / ١٢٣؛ تحفة الأحوذي: ٨ / ٤٥٤؛ تفسير جامع البيان: ١٥ / ١٨٢، الحديث ١٧٠٧٠؛ تفسير نور الثقلين: ٣ / ٢٠٨، الحديث ٣٩٩.

٣. تفسير العياشي: ٤٠٢، الحديث ١٤٨؛ بحارالأنوار: ٨ / ٤٨، الحديث ٤٩؛ تفسير نور الثقلين: ٣ / ٢١١، الحديث ٤٠٢؛ تفسير كنز الدقائق: ٥ / ٥٩٦؛ تحفة الأحوذي: ٨ / ٤٥٤؛ تفسير القرطبي: ٣٠٩/١٠؛ تفسير إبن كثير: ٦٢/٣؛ الإتقان في علوم القرآن: ٥٢٠/٢، الحديث ٦٥٤٥.

العباد، ويلجمهم العرق، وتؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئاً، فيأتون آدم فيتشفّعون منه، فيدلّهم على نوح، ويدلّهم نوح على إبراهيم، ويدلّهم إبراهيم على موسى، ويدلّهم موسى على عيسى، ويدلّهم عيسى على محمّد صلّى الله عليه وآله، فيقول: عليكم بمحمّد خاتم النبيّين، فيقول محمّد: أنا لها.

فينطلق حتّى يأتي باب الجنّة فيدق، فيقال له: من هذا والله أعلم؟

فيقول: محمّد.

فيقال: افتحوا به.

فإذا فتح الباب استقبل ربّه فيخرّ ساجداً، فلا يرفع رأسه حتّى يقال له: تكلّم وسل تعط واشفع تشفع.

فيرفع رأسه، فيستقبل ربّه فيخرّ ساجداً.

فيقال له مثلها.

فيرفع رأسه حتّى أنّه ليشفع من قد أحرق بالنار.

فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأُمم أوجه من محمّد صلّى الله عليه وآله، وهو قول الله تعالى: ﴿**عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾.(١)

وأمّا أهل السنّة، فقد روى جلال الدين السيوطي في تفسير «الدر المنثور» عن سعيد بن منصور والبخاري وابن جرير وابن مردويه: إنّ عبدالله بن عمر قال:

«إنّ الناسَ يصيرون يوم القيامة جثاء كلّ امّة تتبع نبيّها يقولون: يا فلان! إشفع لنا، حتّى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلّى الله عليه وآله.

فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».(٢)

---

١. أمالي الطوسي: ٢ / ٣١٥، الحديث ١٥١؛ بحارالأنوار: ٨ / ٤٨، الحديث ٥٢ ـ ٥٣؛ تفسير كنز الدقائق: ٦ / ٢٥١ ـ ٢٥٧.

٢. تفسير الدّر المنثور: ٤ / ١٩٧؛ تفسير إبن كثير: ٣ / ٥٩؛ صحيح البخاري: ٥ / ٢٢٨؛ عمدة القاري: ١٩ / ٣٠، الحديث ٨١٧٤؛ السنن الكبرى للنسائي: ٦ / ٣٨١، الحديث ١١٢٩٥.

ومن هذا المنطلق، فإنَّ الأنبياء السابقين والأمم الماضية، محتاجون إلىٰ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله.

ورویٰ أحمد بن حنبل والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه: إنَّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله سُئل عن هذه الآية، فأجاب:

«هو المَقامُ الّذي أشفع فيه لأُمَّتي».[١]

ولابن جرير والبيهقي وجماعة: إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«المقام المحمود الشفاعة».[٢]

وعن إبن عباس، إنَّه سُئِلَ عن المقام المحمود فقال:

«مقامُ الشفاعة».[٣]

وعن سعد بن أبي وقّاص: سُئل النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله عن المقام المحمود فقال:

«هو الشفاعة».[٤]

وعلىٰ هذا، فإنَّ الشفاعة مقامٌ ومرتبةٌ هي بالدرجة الأُولىٰ وفي الأصل لله تعالىٰ، ولكنَّ الله عزَّوجل قد أعطىٰ هذه المرتبة لرسوله الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله، بنحو يحتاج إلىٰ شفاعته كلُّ الأنبياء الماضين والأُمم السابقة.

والقرآن الكريم يعبِّر عن هذا الإعطاء بثلاثة عبارات:

١ـ التعبير بالملك.

---

١. الدر المنثور: ٤ / ١٩٧؛ جامع البيان: ١٥ / ١٨٢، الحديث ١٧٠٧٠.

٢. الدر المنثور: ٤ / ١٩٧؛ مسند أحمد بن حنبل: ٢ / ٤٧٨؛ فتح الباري: ١١ / ٣٦٨؛ عمدة القاري: ٢٣ / ١٢٣؛ تفسير الآلوسي: ١٥ / ١٤١.

٣. الدر المنثور: ٤ / ١٩٧؛ تفسير جامع البيان: ١٥ / ١٨٠، الحديث ١٧٠٦٢؛ تفسير إبن كثير: ٣ / ٥٨.

٤. الدر المنثور: ٤ / ١٩٧؛ تفسير الآلوسي: ١٥ / ١٤١.

٢ـ التعبير بالرضا، أي رضا الله تعالىٰ.

٣ـ التعبير بالإذن.

لا شكّ أنّ الله تعالىٰ يُعطي ما يشاء من القدرة، العلم، الثروة، وغير ذلك لمن يشاء من عباده، ويمنعها عمَّن يشاء.

فالله تعالىٰ، هو المالك، وكلُّ الأمور بيده، كما يقول عزَّ من قائل:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء﴾(١).

ويقول في الشفاعة:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾(٢).

وبطبيعة الحال، فإنَّ الله تعالىٰ إذا أعطىٰ نعمةً، ومقاماً، وأيَّ شيء ماديّ أو معنويّ، فإنَّما يعطيه علىٰ أساس ضوابط معيَّنة، وبإعتبار وجود لياقة وإستعدادٍ عند المتلقي لذلك.

وممّا سبق نستنتج:

١ـ إنَّ الشفاعة ليست إكتسابيَّة، بل هي مقام إعطائي.

٢ـ إنَّ إثبات مقام الشفاعة لأحدٍ من الخلق يحتاج إلىٰ الدليل وإلّا فالأصل عدمه.

٣ـ والدليل هو الكتاب أو السنَّة.

ونحن نقرأ في القرآن المجيد قوله تعالىٰ:

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢٦.

٢. سورة النجم: الآية ٢٦.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[1].

وقد فسِّرت هذه الآية الشريفة بالشفاعة، وهي صريحة بأنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أُعطي هذا المقام الكريم.

ومن جملة الأدلَّة علىٰ الشفاعة، قوله تعالىٰ:

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾[2].

وفي آية أُخرىٰ يقول عزَّوجل:

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[3].

وفي تعبير ثالث، يقول عزَّوجل:

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4].

وفي آية أُخرىٰ:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[5].

ويقول تعالىٰ في آية أُخرىٰ:

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء﴾[6].

وبناءاً علىٰ ذلك، فإنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله هو علىٰ رأس كلِّ الشفعاء، والله تعالىٰ قد أعطاه هذا المقام العظيم.

وقد وضع العلّامة المجلسي رحمه الله في «بحارالأنوار» باباً بعنوان «باب

---

١. سورة الضحىٰ: الآية ٥.

٢. سورة مريم، الآية ٨٧.

٣. سورة سبأ: الآية ٢٣.

٤. سورة الزخرف: الآية ٨٦.

٥. سورة طه: الآية ١٠٩.

٦. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

الشفاعة»، وذكر فيه روايات كثيرة حول الشفاعة[١] نذكر طرفاً منها:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«مَنْ لَمْ يؤمنْ بشفاعتي فلا أنالَهُ الله شفاعَتي».[٢]

دلَّت هذه الرواية علىٰ أنَّ من جملة شروط نيل الشفاعة، الإيمان بالشفاعة.

وعن الإمام الصادق عليه السّلام، إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«إذا قمتُ المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي، فيشفّعني الله فيهم، والله لا تشفعت فيمن آذىٰ ذريَّتي».[٣]

فمن هذه الرواية نفهم:

أوَّلاً: أن الشفاعة في أصحاب الكبائر من أمَّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإنَّ الله تعالىٰ قد شفَّع النبيَّ الأكرم في أصحاب الكبائر من أُمَّته.

ثانياً: أنه يشترط أنْ لا يكون ممّن آذىٰ ذريَّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنَّ من آذىٰ ذريَّته لا تناله شفاعة جدِّهم.

وعن الإمام الباقر عليه السّلام، أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«مَن أراد التوسّل إليَّ وأن يكون له عندي يد أشفع له بها يوم القيامة، فليَصِلْ أهل بيتي ويُدخل السّرور عليهم».[٤]

إذن، فمن لم يؤذِ أهل البيت، بل وَصَلهم، كان له كفلٌ أكبر من الشفاعة في يوم القيامة.

وفي حديث آخر أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

---

١. بحارالأنوار: ٨ / ٢٩. وذكر في هذا الباب ٨٦ رواية في الشفاعة.

٢. عيون أخبار الرّضا عليه السّلام: ٢ / ١٢٥، الحديث ٣٥؛ بحارالأنوار: ٨ / ٣٤، الحديث ٤.

٣. الأمالي، للشيخ الصدوق: ٣٧٠، الحديث ٤٦٢؛ بحارالأنوار: ٨ / ٣٧، الحديث ١٢.

٤. الأمالي، للشيخ الصدوق: ٤٦٢، الحديث ٦١٥؛ بحارالأنوار: ٢٦ / ٢٢٧، الحديث ١.

«لكلِّ نبيّ دَعوة دعا بها وقد سأل سؤالاً، وقد خبّأت دعوتي لشفاعتي لأُمّتي يوم القيامة».[١]

وفي حديث قال:

«أُعطيتُ خمساً لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرّعب، وأحلّ لي في المغنم، وأُعطيت جوامع الكلم، وأُعطيت الشّفاعة».[٢]

شفاعة القرآن والعترة

والشافع الآخر هو القرآن الكريم.

يقول أميرالمؤمنين عليه السّلام، كما في نهج البلاغة:

«وإعلموا أنّه شافع مشفَّع وقائل مصدّق، وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه».[٣]

والشافع الآخر هم أهلُ البيت عليهم السّلام وشيعتهم.

ففي رواية عنه عليه السّلام قال:

«لنا شفاعة ولأهل مودّتنا شفاعة».[٤]

فالمستفاد من هذه الروايات هو إنّ النبيّ الأكرم والأئمّة المعصومين عليهم السّلام والقرآن الكريم وأهل المودّة لأهل البيت، هم الشفعاء في يوم القيامة.

---

١. الخصال: ٢٩، الحديث ١٠٣؛ بحارالأنوار: ٨ / ٣٤، الحديث ١.

٢. الخصال: ٢٩٢: الحديث ٥٦؛ نفس المصدر: ٨ / ٣٨، الحديث ١٧.

٣. نهج البلاغة: ٢ / ٩٢، الخطبة ١٧٦؛ بحارالأنوار: ٨٩ / ٢٤، الحديث ٢٤.

٤. الخصال: ٦٢٤؛ بحارالأنوار: ٨ / ٣٤، ذيل الحديث ٣.

وقد وردت في شفاعة شيعة أهل البيت عليهم السّلام، رواية من طرق الفريقين، وهي عن أميرالمؤمنين عليه السّلام وقد إحتجّ بها علىٰ الصحابة، فقال:

«فهل فيكم أحدٌ قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ من شيعتك رجلاً يدخل في شفاعته الجنّة مثل ربيعة ومضر، غيري؟

قالوا: لا».[1]

فأقرّ أُولئك الصحابة بأنّ هذا المقام خاصّ بأميرالمؤمنين عليه السّلام.

وقال الإمام الصادق عليه السّلام:

«مَنْ أنكر ثلاثَة أشياء فليس من شيعتنا: المعراج والمسائلة في القبر والشفاعة».[2]

وفي الكافي عن سماعة بن مهران إنّه كان جالساً عند الإمام الكاظم عليه السّلام عند الكعبة فقال له:

«يا سماعة! إلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله عزّوجل، حَتَمنا علىٰ الله في تركه لنا، فأجابنا إلىٰ ذلك، وما كان بينهم وبين الناس، استوهبناه منهم وأجابوا إلىٰ ذلك وعوّضهم الله عزّوجل».[3]

وخلاصة الكلام في المقام: إنّ كلّ من عنده وجاهة وحرمة وكرامة على الله تعالىٰ، فإنّه سيشفع في يوم القيامة مستفيداً من مقامه عندالله، وهذا أمرٌ ثابتٌ ومسلَّمٌ دلّ عليه الكتاب والسُنّة، وليس بين المسلمين فيه خلاف.

هذا، ولا يخفى وجود الشفعاء الآخرين، كالأنبياء والملائكة المقرّبين وغيرهم.

---

١. الأمالي للشيخ الطوسي: في ضمن الحديث المناشدة: ١١٦٧؛ بحارالأنوار: ٣١ / ٣٨٠، الحديث رقم ٢٤.

٢. الأمالي للشيخ الطوسي: ٣٧٠، الحديث ٤٦٤؛ بحارالأنوار: ٨ / ٣٧، الحديث ١٣.

٣. الكافي: ٨ / ١٦٢، الحديث ١٦٧؛ بحارالأنوار: ٨ / ٥٧، الحديث ٧١.

الشفاعة في منظار علماء الشيعة

وهذه كلماتٌ لعلمائنا الكبار في الشّفاعة:

قال الشيخ الصّدوق رحمه الله في كتاب الإعتقادات:

«إعتقادنا في الشفاعة أنّها لمن ارتضىٰ الله دينه من أهل الكبائر والصغائر... والشفاعة لا تكون لأهل الشكّ والشرك ولا لأهل الكفر والجحود».[1]

وقال الشيخ المفيد رحمه الله:

«إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يشفع يوم القيامة في مذنبي أمّته من الشيعة خاصّة، فيشفّعه الله عزّوجل، ويشفع أميرالمؤمنين عليه السّلام في عصاة شيعته فيشفّعه الله عزّوجل، وتشفع الأئمّة عليهم السّلام في مثل ما ذكرناه من شيعتهم، فيشفّعهم، ويشفع المؤمن البرّ لصديقه المؤمن المذنب، فتنفعه شفاعته ويشفّعه الله.

وعلىٰ هذا القول إجماع الإماميّة إلّا من شذّ منهم، وقد نطق به القرآن وتظاهرت به الأخبار».[2]

وقال الشيخ الطوسي رحمه الله في «التبيان»:

«قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ وإنْ كان علىٰ لفظ العموم، فالمراد به الخصوص بلا خلاف، لأنّ عندنا قد تكون شفاعة في إسقاط الضرر... فقد أجمعنا علىٰ ثبوت الشفاعة، وإنّما ننفي نحن الشفاعة قطعاً عن الكفّار».[3]

ولا يخفىٰ إنّ قوله «عندنا» ظاهر في إجماع الطّائفة المحقّة.

وقال الطبرسي في مجمع البيان:

---

١. الإعتقادات في دين الإماميّة: ٦٦، باب ٢١.

٢. أوائل المقالات: ٧٩ و ٨٠.

٣. التبيان في تفسير القرآن: ٢ / ٣٠٦.

«وهي عندنا للنبيّ صلّى الله عليه وآله ولأصحابه المنتجبين والأئمّة من أهل بيته الطاهرين ولصالحي المؤمنين، وينجّي الله تعالىٰ بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ويؤيّده الخبر الّذي تلقّته الأمّة بالقبول، وهو قوله صلّى الله عليه وآله «إدّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي».[١]

وقال الخواجه نصيرالدين الطوسي:

«الإجماع علىٰ الشفاعة».[٢]

وقال العلّامة الحلّي رحمه الله في شرح التجريد:

«إتّفق العلماء علىٰ ثبوت الشفاعة للنبيّ صلّى الله عليهو آله وسلّم».[٣]

وقال الفاضل المقداد رحمه الله وهو من كبار فقهاء ومتكلّمي الشيعة:

«ثمّ إعلم إنّ صاحب الكبيرة إنّما يعاقَب إذا لم يحصل له أحد الأمرين:

الأوّل: عفو الله مرجوّ متوقّع...

الثاني: شفاعة نبيّنا صلّى الله عليه وآله؛ فإنّ شفاعته متوقّعة بل واقعة لقوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٤]. وصاحب الكبيرة مؤمن لتصديقه بالله ورسوله صلّى الله عليه وآله وإقراره بما جاء به النبي. وذلك هو الإيمان... .

واعلم أنّ مذهبنا أنّ الأئمّة عليهم السّلام لهم الشفاعة في عصاة شيعتهم، كما هو لرسول الله صلّى الله عليه وآله من غير فرق، لإخبارهم عليهم السّلام بذلك مع عصمتهم النافية للكذب عنهم».[٥]

---

١. تفسير مجمع البيان: ١ / ٢٠١ و ٢٠٢.

٢. كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٤٤٣.

٣. نفس المصدر.

٤. سورة محمّد صلّى الله عليه وآله: الآية ١٩.

٥. النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢٤ ـ ١٢٦.

وقال الفيض الكاشاني رحمه الله في هذا السّياق:

«الشّفاعة حق والحوض حق...

قال النبيّ: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي.

ثمّ قال صلّى الله عليه وآله: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل.

وقال المجلسي:

لا خلاف فيها بين المسلمين بأنّها من ضروريات الدين.[١]

هذا، وكذلك صرّح علماء أهل السنّة، ففي كتاب العقائد النسفيّة مثلاً:

الشفاعة ثابتة للرسل والأخبار في حقّ الكبائر، مستفيض من الأخبار.[٢]

ولا ريب أنّ أهل البيت عليهم السّلام هم سادات الأخيار على الإطلاق.

وحاصل الكلام، هو إنّ شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السّلام، أمرٌ قطعي وثابت، ولكنّه مقيّدٌ بضوابط، منها إنّه خاصّ بالمؤمنين، وهي بابٌ للمغفرة والرحمة الإلهيّة.

وبالنّظر إلى ما تقدّم، لن يكون هذا الأمر باعثاً على التجرّي والتمادي في المعصية، لأنّ المؤمن سيكون بين الرجاء والخوف، فحكم الشفاعة في الشريعة، من وجهة نظر القرآن والسُنَّة، هو حكم التوبة.

طلب الصّحابة الشّفاعة من النبيّ

هذا، وقد طلب الصّحابة من رسول الله صلّى الله عليه وآله الشفاعة بعد رحيله من هذه الحياة:

---

١. بحارالأنوار: ٨ / ٢٩ ـ ٦٣.

٢. شرح العقائد النسفيّة: ١٤٨.

عن إبن عباس لما فرغ علي عليه السّلام من تغسيل النبي صلّى الله عليه وآله قال: بأبي أنت وأمّي... طبت حيّاً وطبتُ ميّتاً... أذكرنا عند ربّك.[١]

قالوا: وكشف أبو بكر عن وجه النبيّ صلّى الله عليه وآله وقبّله وقال مثله.[٢]

وروي أن الناس أصابهم القحط في خلافة عمر بن الخطاب، فجاء بلال بن الحارث ـ وكان من أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله ـ إلى قبر النبي صلّى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله استسق لأمّتك، فإنّهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله صلّى الله عليه وآله في المنام وأخبره أنّهم سيسقون.[٣]

إذن، فالإستسقاء منه وهو في البرزخ، ودعاؤه لربّه في هذه الحالة غير ممتنع. وكذلك علم النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ وهو في البرزخ ـ بسؤال من يسأله، فلا مانع من استسقائه وغير ذلك، كما كانوا يسألونه في الدنيا، فلا يكون بدعة ولا شركاً ولا كفراً.

من لا تناله الشفاعة

ثم إنْ مقتضى الجمع بين الأدلّة هو: حمل الآيات النافية للشّفاعة على الكفّار وعلى الذين أنكروا شيئاً من ضروريّات الدين، فخرجوا بذلك عن ملّة المسلمين وأمّة النبيّ الأمين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[٤] وقال عزّوجل من قائل عن أهل النار الذين سألهم الملائكة ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[٥]

---

١. أمالي المفيد: ١٠٥ وعنه البحار: ٢٢ / ٥٢٧.

٢. أنظر كشف الارتياب: ٢٦٥ نقلاً عن خلاصة الكلام لزيني دحلان.

٣. فتح الباري: ٢ / ٣٩٨، أنظر السنن الكبرى: ٣ / ٣٥١، ووفاء الوفاء: ٤ / ١٣٧٤.

٤. سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

٥. سورة المدثر، الآية: ٤٢.

قالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[1].

وهكذا غير ما ذكر من الآيات.

الخلاصة

ويتلّخص البحث حول الشفاعة في النقاط التالية:

١ـ إنّ غير أهل الإيمان لا تنالهم الشفاعة.

٢ـ إنَّ أهل الإيمان لا يتجرّأون على ارتكاب المعاصي بحجّة الشفاعة.

٣ـ إنه لم يصدر وعدٌ بالشفاعة بصورة قطعيّة لمذنبٍ بعينه، دفعاً لاحتمال الجرأة على ارتكاب المعاصي.

وعليه، فالشبهات التي قد تطرح حول الشّفاعة، إمّا هي من باب العناد، أو من الجهل وعدم التدبّر في الأدلّة من الآيات والروايات.

---

١. سورة المدثر، الآية: ٤٨.

البحث الثالث

التوسّل والإستغاثة

لا يخفىٰ أنّ القرب من الله أسمى المقاصد وأشرفها وأفضلها، فالإنسانُ المؤمن إذا أذنب، فإنَّه سيحتاج إلىٰ الشفاعة ليؤوب إلىٰ الله، ولكنَّه إذا أراد السير إلىٰ الله والإقتراب من ساحة عظمته تبارك وتعالىٰ، يحتاج إلىٰ من يرشده إلى الطّريق ويأخذ بيده حتى يصل، وهذا لا يتأتّىٰ إلّا من الأنبياء والأولياء المعصومين.

فتقرُّب الإنسان إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ هو الغرض الأقصىٰ من بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب والشرائع السماويّة، وكلُّ التكاليف الإلهيَّة، والأحكام الشرّعية من الواجبات والمستحبّات والمحرّمات وغيرها، إنَّما هي من أجل إيصال العبد المكلَّف إلىٰ الكمال، لكون التكاليف تابعةً للمصالح والمفاسد، وعليها يترتّب الغرض، والله الغني عن عبادة مخلوقاته، بل الغرض هو تقرّب العبد إليه، ولذا وجب قصد القربة في العبادات. نعم، إنَّ الله تعالىٰ قد كتب ـ بمقتضىٰ لطفه ـ العبادات وشرَّعها ليقترب العبد بواسطتها إلىٰ الله عزّوجلّ.

والأئمَّة الأطهار عليهم السّلام كذلك، فإنَّ الله عزَّوجلّ قد نصبهم بمقتضىٰ قاعدة اللطف، ليكونوا وسائط بين الخلق والخالق.

وهنا أُمور:

الله قريبٌ من عباده

الأوَّل: إنَّ الله تعالىٰ قريب من عباده، يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[١].

ويقول تعالىٰ:

﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٢].

إذن، فإن قرب الله تعالىٰ من عباده أمر ثابت متحقِّق، بل هو أكثر من القرب، حيث يقول القرآن المجيد:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣].

فالله تعالىٰ القريب منّا إلىٰ هذا الحدّ، يُريد منّا أن نتقرَّب إليه، لا أن نبتعد ونتهرَّب منه ونعزف عنه، بل يريد منّا أن نخطو نحوه ونسير إليه.

ففي الآية الكريمة من القرآن الكريم:

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[٤].

فإذا ما عصىٰ العبد، عليه أن يستغفر ثم يتوجّه إلىٰ الله تعالىٰ ويسير نحوه.

إنَّ العطف بالفاء، ثم عطف «التوبة» علىٰ «الإستغفار» بـ«ثُمَّ» فيه نكتة، وذلك، إنَّ الذنب يفصل بين العبد وربِّه، فإذا ندم علىٰ خطيئته، وجب عليه أن يزيل تلك الفاصلة بالعمل الصالح فيتمّ الرجوع إليه، وسيجد الله قريباً منه مجيباً.

قد نصب من يدلّ العباد عليه

الثاني: إنّ الله عزَّوجلّ كما أمرنا بأن نتحرَّك نحوه ونتقرّب إليه، فقد نصب لنا أقرب الناس إليه ليدلّونا عليه، ويعينوننا علىٰ السير نحوه، وهم محمّد وآله عليهم الصّلاة والسَّلام.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٦.

٢. سورة سبأ: الآية ٥٠.

٣. سورة ق: الآية ١٦.

٤. سورة هود: الآية ٦١.

أليسوا أقرب من موسىٰ عليه السّلام الذي قال في شأنه:

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾(١).

أليسوا أقرب من عيسىٰ عليه السّلام الذي قال في شأنه:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(٢).

ألم يقل عزّوجلّ:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٣).

وقد إتّفق السُنّة والشيعة في تفسيرهم لهذه الآية علىٰ إنّ المقصود من «السابقون» هم:

«يوشع بن نون، سبق إلىٰ موسىٰ، ومؤمن آل يَس، سبق إلىٰ عيسىٰ، وعليّ بن أبي طالب عليهما السّلام، سبق إلىٰ محمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم».(٤)

وهو عليه السّلام أفضلهم؟

فهؤلاء المقرّبون عند الله، وإذا صاروا مقرَّبين كانوا مقرِّبين إليه أيضاً.

لا مناص من الوسيلة

الأمر الثالث: لا مناص من التوسل بوسيلةٍ لنيل القرب من الله تعالىٰ، لأنّ القرآن الكريم يقول:

---

١. سورة مريم: الآية ٥٢.

٢. سورة آل عمران، الآية ٤٥.

٣. سورة الواقعة: الآية ١٠ ـ ١١.

٤. الطرائف: ٢٠، الحديث ١١؛ كشف اليقين: ٣٩٤؛ تفسير إبن أبي حاتم: ١٠ / ٣٣٣٠، الحديث ١٨٧٧٣؛ تفسير السمعاني: ٥ / ٣٤٣؛ تفسير إبن كثير: ٤ / ٣٠٤؛ تفسير الدر المنثور: ٦ / ١٥٤.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[١].

قال الراغب الإصفهاني في معنىٰ الوسيلة:

«الوسيلة، التوصّل إلىٰ الشيء برغبة، وهي أخصّ من الوصيلة، لتضمّنها لمعنىٰ الرغبة، قال تعالىٰ: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾. وحقيقة الوسيلة إلىٰ الله تعالىٰ مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرّي مكارم الشريعة وهي كالقربة.

والواسل: الراغب إلىٰ الله تعالىٰ».[٢]

وتدلُّ الآية المباركة علىٰ أنَّ مقام القرب يبدأ من مقام التقوىٰ، لأنَّ الخطاب موجَّه إلىٰ المؤمنين المتَّقين، فلابد أوَّلاً من تحقّق الإيمان والتقوىٰ، ثمَّ السير حتّىٰ الوصول إلىٰ مقام القرب إلىٰ الله.

وفي صحاح اللغة:

«الوسيلة ما يتقرّب به إلىٰ الغير».[٣]

والحاصل: أنّنا مأمورون بإتخاذ المقرَّبين عند الله وسائل لنيل القرب منه تعالىٰ في سيرنا إليه، وهذا يعني ضرورة وجود مقرَّبين منصوبين من قبله عزَّوجلّ لهذا الغرض.

الوسائل اليه

وللتقرُّب إلىٰ الله سبحانه تعالىٰ يمكن ذكر عدَّة وسائل، منها:

١ـ القرآن المجيد.

٢ـ رسول الله وأهلُ البيت عليهم السّلام.

---

١. سورة المائدة: الآية ٣٥.

٢. المفردات في غريب القرآن: ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

٣. صحاح اللغة: ٥ / ١٨٤.

٣ـ الصلاة. فقد ورد في الحديث عن الإمام الرضا عليه السّلام:

«أقرب ما يكون العبد من الله عزّوجل وهو ساجد، وذلك قوله عزّوجل: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[١]»[٢].

بل، قد يستظهر من هذه الرواية كون مطلق السّجود وسيلة، لا خصوص السجود في الصّلاة.

إلّا أنّه لا شكّ عند أحدٍ من المسلمين ـ كما سيأتي ـ في أقربيّة رسول الله من سائر الوسائل، يقول تعالىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[٣].

فلقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله في حياته، وحتّىٰ الآن أيضاً، يستغفر لهذه الأُمّة.

فلو كان مجرّد الإستغفار كافياً للتقرّب إلىٰ الله، لما أمرنا الله عزّوجلّ بالتوسّل برسوله الكريم ليستغفر لنا....

توسّل آدم بالنّبي

ولابدّ من التنويه هنا بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان وسيلة أيضاً فيما قبل هذا العالم، لمثل آدم عليه السّلام، وفي هذا الشأن روايات كثيرة وردت في مصادر الفريقين ـ الشّيعية[٤] والسُنيّة ـ المعتبرة، نكتفي هنا بحديثٍ واحدٍ من طرق العامّة:

---

١. سورة العلق: الآية ١٩.

٢. الكافي: ٣ / ٢٦٥؛ بحارالأنوار: ٨٢ / ١٦٢، ذيل الحديث ٣.

٣. سورة النساء: الآية ٦٤.

٤. اليقين: ١٧٥؛ بحارالأنوار: ١١ / ١٢٥، الحديث ٢٠ و ٢٦ / ٣٢٦، الحديث ٨.

فقد أخرج الحاكم النيشابوري عن عمر بن الخطّاب، قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لما إقترف آدم الخطيئة قال: يا ربّ! أسألك بمحمّد لما غفرت لي.

فقال الله: يا آدم! وكيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟

قال: يا ربّ! لأنّك لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوباً: «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله» فعلمت أنّك لم تضف إلىٰ إسمك إلّا أحبّ الخلق إليك.

فقال الله: صدقت يا آدم! إنّه لأحبّ الخلق إليّ، ادعني بحقّه فقد غفرت لك، ولو لا محمّد ما خلقتك».

فالباري عزّوجلّ أراد أن يلطف بآدم عليه السّلام ففتح له باب التوسّل بالنبيّ الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله، ومن هذا الحديث يتّضح مقام رسول الله صلّى الله عليه وآله عند الله.

قال الحاكم:

«هذا حديثٌ صحيح الإسناد».[1]

إذن، فلقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذلك العالم من أقرب المقرّبين عند الله تعالىٰ، وإذا كان واسطة للأنبياء الماضين، فَلِمَ لا يكون وسيلةَ لنجاة اُمّته وهو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]؟

---

١. المستدرك على الصحيحين: ٦١٥/٢؛ تاريخ مدينة دمشق: ٤٣٧/٧؛ البداية والنهاية: ٩١/١.

٢. سورة التوبة: الآية ١٢٨.

التوسّل بالنّبي بعد وفاته

ولقد توسل الكثيرون برسول الله صلّى الله عليه وآله وراجعوه، بعد رحيله عن هذا العالم، في حوائجهم، وقد أجابهم صلّى الله عليه وآله:

جاء في كتاب «المسند» و«المعجم الكبير» للطبراني، و«المستدرك على الصحيحين»، وغيرها من المصادر المعتبرة عند السنّة، أنَّ رجلاً كانت له حاجة، فأخبر بها عثمان بن حنيف ـ وهو من أصحاب أميرالمؤمنين عليه السّلام ـ فقال له تطهَّر وإذهب إلىٰ مسجد النبيّ صلّى الله عليه وآله وصلِّ ركعتين، ثمَّ قُل:

«اللهمَّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد صلّى الله عليه وآله نبي الرحمة، يا محمّد! إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّك في حاجتي هذه، فتقضيها لي، الله مشفّعه فيَّ وشفِّعني فيه».[١]

قال الحاكم:

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فهذا الرجل قد توسل برسول الله صلّى الله عليه وآله وجعله وسيلة إلىٰ الله، كما إنّه قد خاطبه بقوله: يا محمّد إنّي أتوجه بك...

تُرىٰ، من الَّذي يَسَعَهُ أن يشكّك في هذه الأُمور؟!

نعم، في القرن الثامن للهجرة، ظهر رجل بإسم إبن تيميَّة وحرَّم التوسّل برسول الله صلّى الله عليه وآله، كما حرَّم السّفر إلى زيارته، ولكنَّ أحداً لم يعبأ بكلامه ورأيه فلا قيمة لفتواه عند المسلمين.

---

١. المعجم الكبير: ٩ / ٣١؛ المستدرك على الصحيحين: ١ / ٥١٩؛ تاريخ الإسلام: ١ / ٣٦٤؛ مسند أحمد ابن حنبل: ٤ / ١٣٨.

أدلّتنا على التوسّل بأهل البيت

وَمُقَدِّمُكُمْ أَمَامَ طَلِبَتي وَحَوائِجي وَإِرَادَتِي فِي كُلِّ أَحْوَالي وَأُمُوري

لا شكَّ في أنَّ الأئمَّة عليهم السّلام هم أيضاً وسيلة القرب والواسطة الكبرىٰ إلىٰ الله تعالىٰ، لقضاء الحوائج بين يدي الله، وهذا الموضوع يمكن بحثه في عدَّة محاور:

الأوّل: بعد أن ثبتت صحَّة التوسل بالنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، فإنَّه يتمُّ التوسّل بالأئمَّة المعصومين عليهم السّلام، وذلك من ثلاثة وجوه:

١ـ وحدة الملاك.

٢ـ إنَّ أهل البيت هم بضعة رسول الله صلّى الله عليه وآله وليسوا منفصلين عنه، أي إنَّ التوسل بالصدّيقة عليها السّلام وأبنائها المعصومين هو في الحقيقة توسّل برسول الله نفسه.

٣ـ إنَّ خلقة النبيّ وآله الطاهرين واحدة، خلقوا جميعاً من نور واحد ومن شجرة واحدة.

فعن زيد الشحّام عن الإمام الصادق عليه السّلام قال:

«خلقنا واحد وعلمُنا واحد وفضلُنا واحدٌ، وكُلُّنا واحد عندالله عزَّوجل.

قال زيد: قلت: فكم أنتم.

قال: نحن إثنا عشر، هكذا حول عرش ربِّنا جلَّ وعزَّ في مبتدأ خلقتنا، أوَّلنا محمَّد وأوسطنا محمَّد وآخرنا محمَّد».(١)

الثاني: إذاكانت الصلاة وسيلةً مقرِّبة إلىٰ الله تعالىٰ، فالإمام عليه السّلام كذلك بالأولويَّة القطعيَّة.

---

١. كتاب الغيبة للنعماني: ٨٧ ـ ٨٨، الحديث ١٦؛ المختصر: ٢٧٧، الحديث ٣٦٩؛ بحارالأنوار: ٢٥ / ٢٦٣، الحديث ٢٣.

الثالث: في حديث توسّل آدم عليه السّلام، لم يكن التوسل برسول الله صلّى الله عليه وآله وحده، بل كان به وبأهل بيته الطاهرين. وقد روىٰ الفريقان هذا الحديث بأسانيدهم، كما لا يخفىٰ علىٰ من راجع «الدرّ المنثور»[١] بتفسير قوله تعالىٰ:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٢]

بل إنَّ أهل السنَّة رووا هذا الحديث عن المفضَّل عن الإمام الصادق عليه السّلام، قال.

«سألت جعفر الصّادق عليه السّلام عن قوله عزَّوجلّ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ الآية.

قال: هي الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، وهو أنّه قال: يا ربّ أسألك بحق محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، إلّا تبت عليّ.

فتاب الله عليه إنّه هو التوّاب الرحيم.

فقلت له: يابن رسول الله! فما يعني بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؟

قال: يعني أتمّهن إلىٰ القائم المهدي اثنا عشر إماماً، تسعة من ولد الحسين عليه السّلام».[٣]

الرابع: أنَّ الأئمَّة عليهم السّلام، وسيلة، كما قال تعالىٰ في كتابه: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٤].

---

١. تفسير الدر المنثور: ١ / ٦٠ ـ ٦١؛ شواهد التنزيل: ١ / ١١.

٢. سورة البقرة: الآية ٣٧.

٣. المناقب، لابن المغازلي: ٦٣، الحديث ٨٩؛ ينابع المودّة: ١ / ٢٩٠، الحديث ٦.

٤. سورة المائدة: الآية ٣٥.

فعن الإمام الصادق عليه السّلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذيل هذه الآية المباركة، أنّه قال:

«الأئمّة من ولد الحسين عليه السّلام، من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصىٰ الله عزّوجل، هم العروة الوثقىٰ وهم الوسيلة إلىٰ الله عزّوجلّ».(١)

أقرب الوسائل النبيُّ وآله

ثمَّ إنَّ لأهل السنَّة في المراد من الوسيلة في قوله تعالىٰ:

﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

أقوالاً مختلفة، بعد أن فسّروها بـ«القربة» وعمدتها ثلاثة:

القرآن، والدين، والعبادة.

ومن الناس من يرىٰ التقرّب إلىٰ الله بتهذيب النفس، ومنهم من يتقرّب بدوام ذكر الله.

ونحن عندما نقول: «**متقرّب بكم إليه**» لا ننكر مقرّبية شيء ممّا ذكر، بل المقصود أنّا لا نتقرّب إليه بسواكم، أي الذين نصبهم الناس أئمّةً لهم بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله. والجدير بالإلتفات أنَّ أهل السنَّة أنفسهم لم يذكروا أولئك كمصاديق للوسيلة في الآية المباركة.

وأمّا القرآن، فإنَّ ولاية أميرالمؤمنين وأهل البيت عليهم السّلام من القرآن، قال تعالىٰ:

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السّلام: ١ / ٦٣، الحديث ٢١٧؛ بحارالأنوار: ٣٦ / ٢٤٤؛ كنز الدقائق: ١ / ٦١٤.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.[١]

وأمّا الدّين، فإنَّ الولاية من الدين، كما قال عزَّوجلّ:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾.[٢]

فهذه الآية نزلت في يوم الغدير.

وأمّا العبادة، فإنَّ عمدتها الصَّلاة، وولاية أهل البيت عليهم السّلام من الصَّلاة؟ ألم يقل الشافعي:

«يا آل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنّكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له»[٣]

ففي الحقيقة، إنَّ تلاوة القرآن الكريم، وإنَّ أداء الصلاة وكلّ عبادة، لا يكون لها معنىً بدون ولاية محمّد وآل محمّد، ولا تترتَّب عليها أيَّة آثار.

وكذلك الكلام بالنسبة إلىٰ تهذيب النفس والإلتزام بالأذكار والأوراد إنْ كانت علىٰ الموازين الشرعيَّة، فإنَّ النبيّ وآله الطاهرين هم أصحاب النفوس الزكيَّة، وهم أهل الذّكر ومنهم يؤخذ كلّ ذلك، وهم المرجع الوحيد فيه.

---

١. وينبغي الإلتفات إلىٰ أنَّ الطبري في تفسيره جامع البيان: ٦ / ٣٠٩؛ النحّاس في تفسيره معاني القرآن: ٢ / ٣٠٢؛ السمرقندي في تفسيره: ١ / ٤١١؛ السمعاني في تفسيره: ٢ / ٣٥؛ البغوي في تفسيره: ٢ / ٣٤؛ وابن الجوزي في زاد المسير: ٢ / ٢٧٢، فسَّروا «الوسيلة» بمعنىٰ «القربة»، وفسّرها الطبري وابن الجوزي بـ«المحبَّة» أيضاً، وأنْ كان النحّاس والسمعاني قالا: «الوسيلة درجة عند الله عزَّوجلّ ليس فوقها شيء». وأمّا مفسروا الشيعة فقد فسّروا «الوسيلة» بـ«القربة».

٢. سورة المائدة: الآية ٣.

٣. ديوان الشافعي: ٧٢. والزرقاني في شرح المواهب اللّدنيَّة: ٧ / ٧؛ الشبلنجي في إسعاف الراغبين: ٢١؛ الشبراوي في الإتحاف بحبّ الأشراف: ٢٩؛ الخفاجي في شرح الشفاء: ٣ / ٣٥٤؛ الزرندي الحنفي في نظم درر السمطين: ١٨ و... نقلوا هذا الشعر عن الشافعي.

وعلىٰ الجملة، فإنَّ أقرب الطرق وأقوىٰ الوسائل إلىٰ الله هو التوسّل بالنبيّ وآله الطاهرين، وهذا ما تدلُّ عليه الأدلّة وتشهد به القضايا الكثيرة ويؤكّد عليه علماؤنا الأعلام.

حقّاً إنّه من إنقطع إلىٰ الأئمّة الأطهار عليهم السّلام، وأعرض بشكل كلّي عن غيرهم، ويأس مما عند من سواهم، وجعلهم الواسطة بينه وبين الله تعالىٰ، وطلب القرب بهم إليه عزّوجل، فقد فاز ووُفِّقَ لذلك.

كلُّ الطلبات والحاجات

كما ثبت أيضاً: أنَّ التوسّل بحضرات والاستغاثة بهم لا يختصُّ بحاجةٍ دون اخرى، فهم الوسيلة إلى الله في جميع الأئمّة الأطهار عليهم السّلام الحوائج المعنويَّة، وهم الوسيلة إليه في كلِّ الأُمور الماديَّة، ومن ثمَّ نقول في الزيارة الجامعة:

وَمُقَدِّمُكُمْ أَمَامَ طَلِبَتي

وكلمة «طَلِبَة» جمع «طِلَبَةْ»، بمعنىٰ الطلب، وهو أعمُّ من الحاجة، وكلمة «حوائجي» جمع «حاجة» بمعنىٰ النقص.

وكلمة «إرادتي» بمعنىٰ تمنّياتي.

فِي كُلِّ أَحْوَالي

فللإنسان في حياته نواقص وإحتياجات، وهو يسعىٰ لرفعها وسدِّها، أو إنَّه يطلب الزيادة، وفي باطنه بعض التمنيات لا يظهرها لأحدٍ، سواءاً كانت تلك الأمور ماديَّة أو معنويَّة، فأين يرجع للحصول عليها؟

لا شكَّ في أنَّ كلَّ هذه الأمور هي بيد الله تعالىٰ، ومنه عزّوجل، ولكنَّ محمّداً وآل محمّد عليهم السّلام هم الوسيلة، وبواسطتهم تُنال الفيوضات الرّبانية والعنايات الإلهيَّة وتتحقَّق.

وعليه، فجملة «وَمُقَدِّمُكُمْ» فيها إحتمالان:

١ـ أن نجعل الأئمَّة عليهم السّلام ـ وقبل أن نعرض هذه الحاجات ونطلبها من الله ـ في تصوراتنا ونذكرهم بالصّلوات عليهم، أو نُقسم على الله تعالىٰ بمقاماتهم الشامخة. وبعبارة أُخرىٰ: نطلب من أرواحهم الطّاهرة الحضور من أجل الشّفاعة قبل ذكر طلباتنا وحاجاتنا، لنصل إلىٰ مقاصدنا ببركة حضورهم وشفاعتهم.

٢ـ أن نطلب الحاجات منهم هم، بدليل إنَّهم هم أسماء الله الحسنىٰ، وكلُّ ما يصل من البركات والخيرات، إنَّما يصل بواسطتهم. فإذا ما تلطَّفوا علىٰ أحد بشيء، فذلك لطفٌ إلهيّ وعناية ربّانيَّة، وهذا جارٍ في كلِّ الأُمور، الماديَّة والمعنويَّة، الدنيويَّة والأُخرويَّة، في الأُمور العظيمة والخطيرة وفي الأُمور الصغيرة.

وكذلك بالنسبة إلى الحالات، فإننا نتوسّل بالأئمَّة عليهم السّلام ولا يختصُّ ذلك بحالٍ دون حال، بل هو في كلِّ الأحوال، في حال الصحَّة والمرض، وحال الفقر والغنىٰ، وحال العلم والجهل، في حال القوّة والضّعف. ذلك، لأنّ الإنسان محتاج إلىٰ مقام الولاية في كلِّ أُموره، وإنَّ هؤلاء الأطهار عليهم السّلام هم وسائط الفيض الإلهيّ، وببركتهم تنزل جميع أنواع النعم الإلهيَّة الظاهريَّة والباطنيَّة إلىٰ العباد.

وهذا هو مقام الولاية الكليَّة للأئمَّة عليهم السّلا، والثابت بالأدلَّة اليقينيَّة، وكلّما قام عليه الدليل اليقيني فهو من جملة المعتقدات، نعتقد بنزول البركات بواسطة الأئمَّة كما نعتقد بنزولها وتدبير الامور بواسطة الملائكة المقرّبين إذ يقول تعالىٰ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[١]

١. سورة النازعات: الآية ٥.

فإنَّ تدبير الأُمور ـ بمقتضىٰ هذه الآية ـ موكول إلىٰ الملائكة، وإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يقسم بهم، فإذا ما قلنا بأنَّ الله قد أوكل تدبير أُمور العالم إلىٰ الأئمَّة الأطهار عليهم السّلام، وأنهم وسائط فيضه ورحمته فهل يكون هذا غلوّاً؟!

إنَّ من يعتبر ذلك غلوّاً، لهو قليل المعرفة بشأن النبيّ وآله الأطهار.

ألم يقل الله سبحانه: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ**﴾[١].

ألم يقل الله سبحانه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ**﴾[٢].

و«الإغناء» و«الإيتاء» من الرسول ـ في الآيتين ـ أعمّ من الحياة والممات.

وعن الإمام أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام: إن أبا حنيفة أكل معه، فلما رفع الصّادق يده من أكله قال: الحمدلله ربّ العالمين، اللهمّ هذا منك ومن رسولك صلّى الله عليه وآله.

فقال أبو حنيفة: يا أبا عبدالله، أجعلت مع الله شريكاً؟

فقال له: ويلك. إنّ الله يقول في كتابه: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ...**﴾ ويقول في موضع آخر: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ...**﴾.

فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتها قط.[٣]

نماذج من التوسّل بالنبيّ عند قبره

ومن نماذج التوسّل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عند قبره:

ما رواه الحافظ الطبراني بإسناده عن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف عن عمّه عثمان بن حنيف:

---

١. سورة التوبة: الآية ٧٤.

٢. سورة التوبة: الآية ٥٩.

٣. كنز الفوائد الكراجكي: ١٩٦؛ وسائل الشيعة: ٢٤ / ٣٥١؛ بحارالأنوار: ٤٧ / ٢٤٠.

أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكى ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف: ائتِ الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلْ فيه ركعتين ثم قل: اللهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمّد نبي الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك. ورُح حتّى أروح معك،

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفّان، فجاء البوّاب حتّى أخذ بيده، فأدخله على عثمان، فأجلسه معه على الطنفسة فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته، وقضاها له. ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتّى كان الساعة وقال: ما كانت لك من حاجة، فاذكرها،

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتّى كلَّمتَهُ فيّ.

فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمتُه. ولكن شهدتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وأتاه ضرير[١]، فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وآله: ائتِ الميضاة فتوضأ ثم صلِّ ركعتين ثم ادعُ بهذه الدعوات:

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا، وطال بنا الحديث حتّى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرّ قط.[٢]

وما رواه الدارمي في سننه: أنّه قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة، فقالت: انظروا قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله فاجعلوا منه كواً إلى السماء حتّى

---

١. إشارة إلى ما أورده أحمد: ١٣٨/٤ بسند صحيح، وهو حديث الأعمى الذي ردّ بصره بالدعاء الذي علّمه إيّاه. وأخرجه الترمذي: ٥٦٩/٥، ح ٣٥٧٨ و ابن‌ماجة: ٤٤١/١، والحاكم: ٣١٣/١.

٢. معجم الطبراني: ٩ / ٣٠، الرقم ٨٣١١؛ المعجم الصغير: ١ / ١٨٣، وقال الحديث صحيح.

لا يكون بينه وبين السماء سقف. قال: ففعلوا. فمطرنا مطراً حتّى نَبَتَ العشب وسَمَنت الإبل حتّى تفتقت من الشحم. فَسُمّي عام الفتق.[١]

وروى ابن أبي شيبة، بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار ـ وكان خازن عمر ـ قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، استسق لأُمّتك فإنّهم قد هلكوا، فأتى الرجل من المنام فقيل له: ائتِ عمر... الحديث، وقد روى سيف في الفتوح: إن الذي رأى في المنام المذكور هو: بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة.[٢]

نماذج من التوسّل بأهل البيت

وقال الحمزاوي العدوي المتوفى بعد كلام طويل حول مشهد الإمام الحسين: واعلم أنه ينبغي كثرة الزيارة لهذا المشهد العظيم متوسّلاً به إلى الله، ويطلب من هذا الإمام ما كان يطلب منه في حياته، فإنّه باب تفريج الكروب، فبزيارته يزول عن الخطب الخطوب ويصل إلى الله بأنواره والتوسّل به كلُّ قلب محجوب.

ومن ذلك ما وقع لسيدي العارف بالله تعالى محمد شلبي شارح «العزية» الشهير بابن الست، وهو أنّه قد سرقت كتبُه جميعها من بيته قال: فتحيّر عقله واشتد كربه، فأتى إلى مقام وليّ نعمتنا الحسين عليه السّلام منشداً لأبيات استغاث بها، فتوجّه إلى بيته بعد الزيارة ومكث في المقام مدّة، فوجد كتبه في محلّها قد حضرت من غير نقص لكتاب منها.[٣]

---

١. سنن الدارمي: ١ / ٥٦؛ سبل الهدى والرشاد: ١٢ / ٣٤٧؛ وفاء الوفاء: ٤ / ١٣٧٤.

٢. فتح الباري: ٢ / ٥٧٧؛ وفاء الوفاء: ٤ / ١٣٧٢.

٣. مشارق الأنوار للحمزاوي: ١ / ١٩٧، أنظر الغدير: ٥ / ١٩١.

وعقد الشبراوي الشافعي في كتابه الإتحاف بحب الأشراف باباً في ذلك المشهد الشريف ـ رأس الحسين عليه السّلام ـ وذكر فيه زيارته وشطراً من الكرامات له، منها:

إن رجلاً يقال له شمس الدين القعويني كان ساكناً بالقرب من المشهد وكان معلّم الكسوة الشريفة، حصل له ضرر في عينيه فكفّ بصره وكان كلّ يوم إذا صلّى الصبح في مشهد الإمام الحسين عليه السّلام يقف على باب الضريح الشريف، ويقول: يا سيدي أنا جارك قد كفّ بصري وأطلب من الله بواسطتك أن يردّ عليَّ ولو عيناً واحدة، فبينما هو نائم ذات ليلة إذ رأى جماعة أتوا إلى المشهد الشريف فسأل عنهم، فقيل له: هذا النبيّ صلّى الله عليه وآله والصحابة معه جاؤوا لزيارة الحسين عليه السّلام، فدخل معهم ثم قال ما كان يقوله في اليقظة، فالتفت الحسين إلى جدّه صلّى الله عليه وآله وذكر له ذلك على سبيل الشفاعة عنده في الرجل،

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام: «يا علي كحِّله. فقال: سمعاً وطاعة،

وأبرز من يده مكحلة ومروداً وقال له: تقدّم حتّى أُكحلك فتقدم، فلوّث المرود ووضعه في عينه اليمنى، فأحسَّ بحرقانٍ عظيم، فصرخ صرخة عظيمة فاستيقظ منها وهو يجد حرارة الكحل في عينه، ففتحت عينه اليمنى فصار ينظر بها إلى أن مات.[١]

وقال الخطيب البغدادي بترجمة الإمام موسى الكاظم عليه السّلام، قال أبوبكر الخلّال: ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسّلت به إلّا سهّل الله تعالىٰ لي ما أُحب».[٢]

---

١. الاتحاف بحب الأشراف: ٧٥ ـ ١١٠؛ الغدير: ٥ / ١٨٧.

٢. تاريخ بغداد: ١ / ١٢٠.

وقال ابن حبان: مات علي بن موسى الرضا بطوس من شربة سقاه إيّاها المأمون فمات من ساعته... وقبره بسناباذ خارج النوقان مشهور يزار... قد زرتُهُ مراراً كثيراً، وما حلَّتْ بي شدّة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جدّه وعليه، ودعوت الله أزالتها عنّي إلّا استجيب لي وزالت عنّي تلك الشدّة، وهذا شيء جرّبتهُ مراراً فوجدتُه كذلك، أماتنا الله على محبّة المصطفى وأهل بيته صلّى الله عليه وآله وعليهم أجمعين.(١)

وقال محمّد بن مؤمل: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر ابن خزيمة وعديله ابن علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضا بطوس. قال: فرأيت من تعظيمه ـ يعني ابن خزيمة ـ لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرّعه عندها ما تحيّرنا.(٢)

نموذجٌ من التوسّل بالنبيّ في شعر في مدحه

ومن نماذج التوسّل بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قصّة البوصيري، و هو الشيخ شرف الدين محمد بن سعيد، المتوفى سنة ٦٩٤، وقصيدته التي اشتهرت بـ «البردة» وهي ١٦٢ بيتاً، ومطلعها:

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سَلَمِ ... مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ

قال البوصيري: كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلّى الله عليه وآله، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتّفق بعد ذلك أنْ أصابني فالجٌ أبطل نصفي، ففكّرتُ في عمل قصيدتي هذه البردة، فعملتها

---

١. كتاب الثقات: ٦ / ٤٠٢؛ الأنساب للسمعاني: ١ / ٥١٧.

٢. تهذيب التهذيب: ٧ / ٣٣٩.

واستشفعت به إلى الله عزّوجلّ في أن يعافيني، وكرّرت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسّلت به ونمت. فرأيت النبيّ صلّى الله عليه وآله فمسح على وجهي بيده الكريمة وألقى عليّ بردةً، فانتبهتُ ووجدت فيّ نهضةً، فخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء، فقال:

أريد أن تُعطيني القصيدة التي مدحتَ بها رسول الله صلّى الله عليه وآله،

فقلت: أيّها؟

فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أوّلها وقال: والله لقد سمعنا البارحة وهي تُنشَد بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله، ورأيته صلّى الله عليه وآله يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردةً، فأعطيتُه إيّاها.

وذكر الفقير ذلك، فشاع المنام إلى أن اتّصل بالصّاحب بهاء الدين وزير الظاهر، فبعث إليّ واستنسخها، ونذر أن لا يسمعها إلّا قائماً حافياً مكشوف الرأس، وكان يحبّ سماعها هو وأهل بيته.

ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقي الموقّع رمدٌ أشرف منه على العمى، فرأى في المنام قائلاً يقول له: إِذهب إلى الصاحب وخذ البردة وأُجعلها على عينيك تُعافىٰ بإذن الله.

فأتىٰ الصاحب وذكر منامه فقال: ما أعرف عندي من أثر النبي صلّى الله عليه وآله بردةً، ثم فكّر ساعةً وقال: لعلّ المراد قصيدة البردة، يا ياقوت قل للخادم يفتح صندوق الآثار ويُخرج القصيدة من حُقّ العنبر ويأتِ بها، فأتى بها، فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه فعُوفيتا، ومن ثم سُمّيت البردة.[١]

وقال صاحب كشف الظنون:

هي مشهورة بين الأنام ويتبرّك بها الخواص والعوام، حتى قرئت قدّام الجنائز

---

١. الوافي بالوفيات: ٣ / ١١٣.

والمساجد، واستشفى بها الأمراض والأسقام، وكتبوا عليها من التخميسات والتسبيعات والنظائر ما لا يعد.

ثم ذكر شروحها قائلاً: وعليها شروح كثيرة...

قال: وخمّسها أيضاً جماعة...

أقول:

وقد ذكر من بين الشرّاح والمخمّسين عدّةً من أكابر الفقهاء والمحدثين المشاهير، كالشيخ بدر الدين الغزّي، وجلال الدين المحلّي، وبدر الدين الزركشي، وأبي شامة المقدسي، وشهاب الدين الحجازي، ونور الدين القاري، وشهاب الدين القسطلاني، وغيرهم.[١]

نماذج من الاستغاثة بالقبور:

١ـ قبر أبي أيوب الأنصاري

قال الحاكم: يتعاهدون قبره ويزورونه ويستسقون به إذا قحطوا.[٢]

٢ـ قبر أبي حنيفة:

إن الشافعي أيّام كان هو ببغداد كان يتوسل بأبي أبي حنيفة ويجيء إلى ضريحه يزور، فيسلّم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته.

هذا، وقد ثبت أن أحمد توسّل بالشافعي حتى تعجَّب ابنه عبدالله فقال له أبوه:

---

١. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ٢ / ١٣٣١ ـ ١٣٥.

٢. مستدرك الحاكم: ٣ / ٥١٨، الرقم ٥٩٢٩ / ١٥٢٧، صفة الصفوة: ١ / ٤٧٠.

إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن. ولمّا بلغ الشافعي: أن أهل المغرب يتوسلون بمالك بن أنس لم ينكر عليهم، قال الشافعي: إني لأتبرّك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره كلّ يوم، فإذا عرضت لي حاجة صلّيتُ ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده.(١)

٣ـ قبر أحمد بن حنبل:

حكى ابن الجوزي في مناقب أحمد، عن عبدالله بن موسى قال: خرجتُ أنا وأبي في ليلة مظلمة نزور أحمد فاشتدت الظلمة فقال أبي: يا بني تعال نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح حتى يضيء لنا الطريق، فإنّي منذ ثلاثين سنة ما توسّلت به إلّا قُضيت حاجتي، فدعا أبي وأمّنتُ على دعائه، فأضاءت السّماء كأنّها ليلة مقمرة حتى وصلنا إليه.(٢)

٤ـ قبر ابن فورك الأصبهاني:

دفن بالحيرة من نيسابور، ومشهده بها ظاهر يزار ويستسقى به وتجاب الدعوة عنده.(٣)

٥ـ قبر الشيخ أحمد بن علوان:

قال اليافعي: ومن كراماته أن ذرية الفقهاء الذين كانوا ينكرون عليه صاروا يلوذون عند النوائب بقبره ويستجيرون من خوف السلطان.(٤)

---

١. تاريخ بغداد: ١ / ١٢٣.

٢. مناقب أحمد: ٢٩٧، لابن الجوزي.

٣. وفيات الأعيان: ٤ / ٢٧٣؛ سير أعلام النبلاء: ١٧ / ٢١٦.

٤. مرآة الجنان: ٤ / ٣٥٧.

٦ـ قبر البخاري:

إن سمرقند استسقت واستغاثت بقبر البخاري عام ٤٦٤ هـ يعني قبل ولادة ابن تيمية صاحب المزاعم بثلاثمائة سنة. فعن السُّبكي: «قُحط المطر عندنا بسمرقند في بعض الأعوام، فاستسقى الناس مراراً فلم يُسقوا، فأتى رجل صالح معروف بالصلاح إلى قاضي سمرقند، فقال له: إنّي قد رأيت رأياً أعرضه عليك.

قال: وما هو؟ قال: أرى أن تخرج، ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ونستسقي عنده، فعسى الله أن يسقينا، فقال القاضي: نِعمَ ما رأيت. فخرج القاضي، والناس معه، واستسقى القاضي بالناس، وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى السماء بماء عظيم غزير، فقام الناس من أجله بخرتنك[١] سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته، وبين سمرقند وخَرتَنك نحو ثلاثة أميال.[٢]

---

١. من قرى سمرقند. معجم البلدان: ٢ / ٣٥٦.

٢. طبقات الشافعية: ٢ / ٢٣٤؛ سير أعلام النبلاء: ١٢ / ٤٦٩.

الحياة البرزخيّة

ثمّ إن أتباع ابن تيميّة سعوا وراء توجيه أباطيله بالمناقشة في أدلّة المسلمين في الزيارة والشّفاعة والتوسّل وبناء القبور بما لا حاجة إلى ذكره...

ولكنّ هناك شبهة ما زالوا يردّدنها ويطرحونها على الزائرين لقبر رسول الله صلّى الله عليه وآله المستشفعين المتوسّلين به، وهي اختصاص أدلّة الجواز بحال الحياة، وأمّا بعد الممات، فلا فائدة لزيارته والتوسّل به... بل هو شركٌ!!

ولكنّ كلّ الأدلّة من الآيات والأحاديث تدلُّ على حياة النبيّ والأئمّة الأطهرين من عترته بعد موتهم...

ويدلّ على ذلك قوله عزّوجلّ **﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾**[1]، ولا سيّما بالنظر إلى أحاديث عرض الأعمال عليهم المرويّة والمقبولة عند الفريقين.

أحاديث صريحة في الموضوع

ثم إن هناك أحاديث معتبرة صريحة في حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد مماته، من ذلك قوله صلّى الله عليه وآله:

«علمي بعد وفاتي كعلمي في حياتي».

---

١. سورة التوبة، الآية ٩٤.

رواه الحافظ المنذري[١]

وقوله:

«الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون».

أخرجه أبويعلى برجالٍ ثقات، ورواه البيهقي وصححه[٢]

وقوله:

«أكثروا الصّلاة عليَّ يوم الجمعة، فإنه مشهود تشهده الملائكة. وإنْ أحدٌ يصلي عليَّ إلّا عرضت عليّ صلاته حين يفرغ منها».

رواه ابن ماجة بإسناد جيد كما قال المنذري[٣]

وقوله:

«إنّ لله ملائكة سيّاحين يبلّغونني عن أُمّتي».

رواه البزّار برجال الصحيح[٤]

من كلمات العلماء الصريحة في ذلك

وقال البيهقي: الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ـ بعد ما قبضوا ـ ردّت إليهم أرواحهم، فهم أحياء عند ربهم كالشهداء. وقد رأى نبيّنا ليلة المعراج جماعةً منهم.

قال: وقد أفردنا لإثبات حياتهم كتاباً.

وقال أبو منصور البغدادي: قال المتكلّمون المحققون من أصحابنا: إنّ نبيّنا محمّداً صلّى الله عليه وآله حيّ بعد وفاته، يسّر بطاعات أُمّته، وإنّ الأنبياء لا

١. وفاء الوفا: ٤ / ١٣٤٩.

٢. المصدر نفسه.

٣. وفاء الوفا: ٤ / ١٣٤٩.

٤. المصدر.

يبلون.[١]

وقال القسطلاني: لا شك أن حياة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ثابتة معلومة مستمرة، ونبيّنا أفضلهم. وإذاكان كذلك، فينبغي أنْ تكون حياته أكمل وأتمّ من حياة سائرهم.[٢]

وقال السمهودي: لا شك في حياته بعد وفاته، وكذا سائر الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أحياء في قبورهم حياةً أكمل من حياة الشهداء...».[٣]

الحياة بعد الموت في كلمات العلماء

١ـ ابن العربي المالكي: إنّ إحياء المكلّفين في القبر وسؤالهم جميعاً لا خلاف فيه بين أهل السنّة.[٤]

٢ـ سيف الدين الآمدي: إتفق سلف الأُمّة، قبل ظهور المخالف وأكثرهم بعد ظهوره، على إثبات إحياء الموتى في قبورهم.[٥]

٣ـ السُبكي: وقد أجمع أهل السنّة على إثبات الحياة في القبور. قال إمام الحرمين في الشامل: اتفق سلف الأُمّة على إثبات عذاب القبر وإحياء الموتى في قبورهم وردّ الأرواح في أجسادهم...

أضاف السبكي بعد نقل هذه الأقوال: وقد تلخّص من هذا: إنّ الروح تعاد إلى

---

١. المصدر.

٢. المواهب اللدنيّة بالمنح المحمّدية: ٣ / ٤١٣.

٣. وفاء الوفا: ٤ / ١٣٤٩.

٤. شفاء السقام: ٢٠٤.

٥. وفاء الوفاء: ٤ / ١٣٥١.

الجسد ويحيى وقت المسألة وإنه ينعم أو يعذّب من ذلك الوقت إلى يوم البعث.(١)

٤ـ ابن تيمية ... إن الشهداء، بل كل المؤمنين إذا زارهم المسلم وسلَّم عليهم عرفوا به، وردّوا عليه السّلام. قال السمهودي: فإذا كان هذا في آحاد المؤمنين فكيف بسيّد المرسلين.(٢)

٥ـ الغزالي: كان محمّد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له: لو أخّرت إلى يوم الاثنين؟ فقال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده.(٣)

٦ـ منصور ناصف: فإنه أورد عن ابن عباس: مرّ رسول الله بقبور المدينة، فأقبَلَ عليهم بوجهه فقال: «السّلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر».

رواه الترمذي بسند حسن.

قال في الشرح: فيندب لزائر القبور: السّلام عليكم أوّلاً، والدعاء له ولهم ثانياً، ويتأكّد الاخلاص فإنّه مفتاح القبول. وطلب السلام على الموتى يفيد أنّهم يشعرون ويدركون، فإن الموت ليس عدماً محضاً بل هو انتقال من دار إلى دار، يفنى الجسم وتبقى الروح كاملة الإحساس في عذاب أو نعيم إلى يوم يبعثون.(٤)

وقال في باب الجمعة بعد حديث أوس بن أوس عن النبيّ صلّى الله عليه وآله «إنّ من أفضل أيامك الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة. فأكثروا عليَّ من الصلاةفيه، فإنَّ صلاتكم معروضة عليّ، قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرَمْتَ (رميماً) فقال: إنَّ الله حرّم على الأرض أجساد

---

١. المصدر: ٤ / ١٤١٢.

٢. المصدر: ٤ / ١٣٥١.

٣. وفاء الوفاء: ٤ / ١٤١٢.

٤. التاج الجامع للأصول: ١ / ٣٨١.

الأنبياء».

رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

قال في الشرح: بأمر الله تعالى فيسمعها فينسّر بها، لأنّه في قبره حيّ ويفرح بصلاة المصلّين عليه، ففيها رفع درجات له ولهم... وإمّا في غير يوم الجمعة، فإن الصلاة عليه تبلغه على لسان ملائكة مخصوصين بهذا، كما تبلغه أعمال الأمّة في يوم الخميس بواسطة ملائكة لهذا.

وعن عبدالله بن أبي أوفى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أكثروا الصّلاة عليَّ يوم الجمعة، فإنّي أُبلَّغ واستمع».

رواه الشافعي وابن ماجة». (١)

---

١. التاج الجامع للأصول: ١ / ٢٩٢.

فهرس المحتويات